بسم الله الرحمن الرحيم

الحمدُ لله رب العالمين، والصلاة والسلام على أشرف الأنبياء والمرسلين نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين، اللهم اغفر لنا ولشيخِنا وللمسلمين

قال الإمام المجدد شيخ الإسلام محمد بن عبد الوهاب رحمه الله تعالى: اعلم -رحمك الله- أنه يجبُ علينا تعلُّمُ أربعَ مسائلَ:

الأولى: العلمُ، وهو معرفةُ الله، ومعرفةُ نبيِّه صلى الله عليه وسلم، ومعرفةُ دينِ الإسلامِ بالأدلَّةِ.

الثانيةُ: العملُ به.

الثالثةُ: الدعوةُ إليه.

الرَّابعة: الصبرُ على الأذى فيه، والدليلُ: قوله تعالى: بسم الله الرحمن الرحيم ﴿وَالْعَصْرِ * إِنَّ الْإِنْسَانَ لَفِي خُسْرٍ * إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ﴾ [سورة العصر].

قال الشافعي رحمه الله تعالى: «لو ما أنزل الله حجة على خلقه إلا هذه السورة لكفتهم».

وقال البخاري رحمه الله تعالى: بابٌ: العلمُ قبل القولِ والعملِ، والدليل قوله تعالى: ﴿فَاعْلَمْ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَاسْتَغْفِرْ لِذَنْبِكَ﴾ [محمد: ١٩]، فبدأ بالعلمِ قبل القولِ والعمل.

***

إن الحمدَ لله نحمدُه، ونستعينُه ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيئاتِ أعمالنا، من يهدِه الله فلا مضلَّ له، ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن نبينا محمدًا عبدُه ورسوله، صلَّى الله عليه وعلى آله وأصحابه، ومن سَار على نهجه واستنَّ بسنته إلى يوم الدين، أما بعد ..

فأسألُ الله -عز وجل- لي ولكم العلم النافع والعمل الصالح، وأن يجعلنا موفَّقين مسدَّدين، وأن يرزقَنا الإخلاص في أقوالنا وأعمالنا، وأن يجعلنا متبعين لسنة نبينا صلى الله عليه وسلم.

أيها الأخوة الكرام يقول العلماء: إن العلمَ يشرُف بشرفِ متعلَّقه، ولما كان علم التوحيد يتعلق بالله -عز وجل- كان هو أشرف العلوم، فعلمٌ يُعرفك بربك -جل وعلا-، وما يستحقه -جل وعلا- من الأسماء والصفات، وما يستحقه -جل وعلا- من الربوبية، وما يستحقه -جل وعلا- من العبودية، لا شك أنه علم شريف عظيم، وهذا العلم -أعني علم العقيدة- له أهميته الكبرى، أذكر بعض النقاط المتعلقة بأهمية هذا العلم.

أولها: أن التوحيد هو أول ما دعتْ إليه الرسل عليهم الصلاة والسلام؛ ولهذا لما بعث النبي صلى الله عليه وسلم معاذًا رضي الله عنه إلى اليمنِ قال له: «فَليكُن أوَّلُ ما تدعُوهُم إليه شهادةُ أنْ لا إلهَ إلَّا اللهُ وأنَّ محمَّدًا رسولُ اللهِ».

والأنبياء قبل النبي صلى الله عليه وسلم كلُّ واحدٍ منهم يقول لقومه: ﴿اعْبُدُوا اللهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ﴾ [الأعراف: ٥٩]، فهذا لا شك أنه يدل على أهمية التوحيد والدعوة إليه.

الأمر الثاني مما يدل على أهمية دراسة العقيدة: أن العبادةَ لا تصحُّ إلا مع التوحيد الخالص لله -عز وجل-، كما أن الصلاة لا تصحُّ إلا مع الطهارة، فمتى ما وُجد الشركُ من العبد فإنه يُحبط العملَ ولا يصح منه عبادةٌ يتقرب بها إلى الله -عز وجل-، ولهذا قال الله -جل وعلا- في حق نبيه محمد صلى الله عليه وسلم: ﴿وَلَقَدْ أُوحِيَ إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ [الزمر: ٥٩]، هذا في حق نبيه محمد صلى الله عليه وسلم، فكيف بغيره؟!

ولما ذكر الله -عز وجل- الأنبياء عليهم الصلاة والسلام في سورة الأنعام، قال -جل وعلا-: ﴿وَلَوْ أَشْرَكُوا لَحَبِطَ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [الأنعام: ٨٨]، ولا شك أن هذا يوجبُ الخوفَ من العبد أن يقعَ منه شركٌ فيُحبط عمله.

النقطة الثالثة: أن الخلل الذي يقع في الاعتقاد خطره كبير جدًّا، فربما بكلمة واحدة أو اعتقادٍ واحد أو عمل واحد أو شكٍّ يخرج العبد من الإسلام، ويكون مآله إن مات على ذلك الى النار خالدًا مخلدًا فيها، ولا شك أن هذا يوجبُ الخوف ويوجب الاجتهادَ في تعلم التوحيد، ومعرفةِ مسائل التوحيد، ومعرفةِ ما يناقض التوحيد من الشرك الأكبر والأصغرِ، والكفر الأكبر والأصغر، والنفاق الأكبر والأصغر، كل هذا لا بد من معرفته.

وكما قيل:

عرفت الشر لا للشر ولكن لتوقِّيه *** ومن لا يعرف الشرَّ من الخيرِ يقع فيه

وحذيفة رضي الله عنه كان يقول: «كانَ النَّاسُ يَسْأَلُونَ النبي صلى الله عليه وسلم عَنِ الخَيْرِ، وكُنْتُ أَسْأَلُهُ عَنِ الشَّرِّ، مَخَافَةَ أَنْ يُدْرِكَنِي».

كان الناس يسألون عن الخير وكنت أسأله عن الشر مخافة أن يدركني.

فالواجب: تعلُّم التوحيدِ، وتعلُّمُ ما يناقضُ التوحيدَ؛ حتى يكونَ الإنسانُ على بينةٍ؛ لئلا يقعَ في الشرك أو الكفر.

مما يدل على أن المرءَ قد يخرج من الإسلامِ بكلمةٍ واحدة، الحديث الذي أخرجه مسلم وغيره عن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه، وعن غيره أيضًا: أن رجلين متآخَيَين من بني إسرائيل، أخبر النبي عليه الصلاة والسلام عنهما، فكان أحدهُما مجتهدًا في العبادة والآخر مُقصّرًا، فكان المجتهد إذا رأى هذا المقصر يقول له: أقصِرْ -يعني عن الذنب وعن المعصية-، فرآه يومًا، فقال له: أقصر، فقال إليك عني، أو قال: خلِّني وربي، أَبُعِلْتَ عليَّ رقيبًا؟ فقال -هذا المجتهد في الطاعة-: والله لا يغفر الله لك، أو قال: والله لا يُدخلك الجنةَ، فقال الله -عز وجل-: من ذا الذي يتَأَلَّى عليَّ -يعني من ذا الذي يحلفُ عليَّ- أني لا أغفر لفلانٍ، لقد غفرتُ له وأحبطتُ عملَك.

يقول أبو هريرة رضي الله عنه راوي الحديث: قال كلمةً أحبطتْ -أو قال أوْبقتْ- دنياه وآخرتَه.

لا شك أن هذا الأمر يوجبُ للمؤمن الذي قلبه حيٌّ أن يخاف من أن يحصل منه ما يُخرجه من دين الإسلام، واليوم الشُّبهُ كثيرةٌ جدًّا.

يعني مما يؤكد، وهذه نذكر النقطة الرابعة: أنه في هذا العصر كثُرت الشُّبه، وكثُرت الفتن، ودخلت الشبه؛ شبه الكفر، وشبه الشرك، وشُبه البدع، دخلت على الناس في قعرِ بيوتهم؛ ففي هذا الجوال تنظر المرأة وينظر الولدُ والكبير والصغير كلهم ينظرون إلى ما فيه، فترِد عليهم الشُّبه من كل مكان، فإذا لم يتحصنوا بالعلمِ ومعرفة الاعتقاد الصحيح وعقيدة آل السنة والجماعة، وإلا فإنه يُخشى عليهم أن يفتتنوا بهذه الشُّبه فتذلَّ أقدامُهم، عياذًا بالله.

يعني مما يذكر في هذا الآن، توجد برامج للكِهانة وللسِّحر، ومواقع أيضًا، وتوجد ما يُعرف بالأبراج: برج العقْرب، وبرج الحوت، وغيرها، وهذه فيها خللٌ عقديٌّ كبير، وكثير من الناس يقع فيها ولا يستحضرُ ولا يعلمُ شناعةَ ما وقع منه، يعني إذا خرج كاهن في إحدى القنوات الفضائية وقد يتكلم عما سيحدث في هذا العام، سيحدث كذا، سيحدث حروب، سيموت مثلا ملك من الملوك أو رئيس من الرؤساء، أو غير ذلك، الآن: ما حكم مشاهدة هذا البرنامج؟ يقول النبي عليه الصلاة والسلام: «مَنْ أتَى كَاهنًا أو عرَّافًا فسَألهُ عنْ شيءٍ لَمْ تُقبلْ له صلاةٌ أربعينَ ليلةً».

يعني في السابق يذهبون إلى الكاهن يقولُ: أستطلعُ ما عندَه فقط، أنا أعرف أنه لا يعلمُ الغيبَ ولا أصدقه فيما يقول، هذا عقوبته إذا ذهب إلى الكاهن أو العرَّاف وسأله فقط من غير تصديق العقوبة: أنه لا تُقبل له صلاةٌ أربعين ليلةً، طيب، إذا صدَّقه؟ قال عليه الصلاة والسلام: «من أتى كاهنًا أو عرافًا فسأله عن شيء فصدَّقه فقدْ كفَر بما أُنزلَ على محمد» صلى الله عليه وسلم، والذي أُنزل على محمد: القرآنُ، فيه قول الله -عز وجل-: ﴿قُلْ لَا يَعْلَمُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ الْغَيْبَ إِلَّا اللهُ﴾ [النمل: ٦٥] فإذا طبَّقنا هذا على القنواتِ الفضائيةِ، أو مواقعَ، أو مقاطع تأتيك في الجوال، يقولون اسمع ما يقول هذا الكاهن، طيب دخلت الآن وسمعت ما يقول وأنا قاطع وجازم أنه كذاب، ما الحكم؟ لا تُقبل له صلاة أربعين ليلة، كثير من

الناس في غفلةٍ عن هذا، ما السبب؟ عدم تعلم مسائل التوحيد، عدم العناية بالعقيدة وفهمها وتعلُّمها، وإعراض كثيرٍ من الناس عنها وكأنهم في مأمنٍ.

يقول واحد: الحمد لله، نحن الآن على الإسلام ونشأنا في بلد التوحيد، ويظن أنه في مأمن، إذا كان إبراهيم عليه الصلاة والسلام ماذا قال؟ قال: ﴿وَاجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَنْ نَعْبُدَ الْأَصْنَامِ﴾ [إبراهيم: ٣٥] يقولُهُ إبراهيمُ عليه الصلاة والسلام، كما يأتينا أن الحنيفية ملَّة إبراهيم، لماذا قيل ملة إبراهيم؟ هو أقْوم من قام بها، أكثر ممن قبله، ثم أُمِر محمد عليه الصلاة والسلام أن يتبع ملة إبراهيم، ومع هذا يقول إمام الحنفاء إبراهيم عليه السلام يقول: ﴿وَاجِنُبْنِي وَبَنِيَّ أَنْ نَعْبُدَ الْأَصْنَامِ﴾ يعني: اجعلني في جانب واجعل عبادة الأصنام في جانب وباعد بيني وبينها، من منا اليوم يقول ربي أبعدني عن عبادة الأصنام؟ في غفلة كثيرٌ منا، فالواجب علينا العناية بهذا الأمر، والانتباه له؛ لأن به النجاة والسعادة والفلاح في الدنيا والآخرة.

يعني هذه الأبراج التي توجَد في بعض المجلات وربما توجد في بعض المواقع، برج كذا وبرج كذا وبرج كذا، بعضهم يدخل ويقرأ في هذه الأبراج، سيحدث لك إذا كان وُلد في هذا البرج يقولون سيحدث لك كذا وكذا وكذا من الأشياء، يذكرون عمومات؛ حتى تروج على أكبر عدد من الناس، وهذا من مكرهم، نقول: مجرد قراءتها ينطبق عليه الحديث أنه لا تقبل له صلاة أربعين ليلة، فإن صدَّق فقد كفرَ بما أُنزل على محمد صلى الله عليه وسلم، ويُستثنى من ذلك أهلُ العلم الذين يطَّلعون عليها لبيانِ بطلانها والردِّ على أهلها، وهذا لا يكون إلا للخاصة من أهل العلم، أما عموم الناس فيُؤمرون بالابتعاد عنها لأجل ألا تحصل الفتنة؛ ولهذا أخبر عليه الصلاة والسلام في الحديث أن الكهَّان يأخذون من الشياطين، الشياطين تَسْترِقُ السمع ثم تُلقَى الكلمة على هذا الكاهن أو الساحر فيكذبَ معها مائةَ كذبةٍ، ثم إذا أخبرهم بتلك الكلمة التي – يعني- أُخِذَت من السماء قال الناس: أليس قد قال لنا يوم كذا وكذا كذا وكذا، يعني فوقع كما قال، يفتتنون بكلمة واحدة ولا ينظرون للكذب الكثير الذي يقع منه، ولا يقع في الواقع منه شيء.

فالمقصود من هذا: أننا نعتني جميعًا بعلم العقيدة، ولا تكلَّ ولا تملَّ من إعادتِه ومُدارسته، سيأتينا إن شاء الله تعالى يعني نماذج مُشرِقة عن سلف الأمة وعن العلماء المعاصرين في هذا.

النقطة الأخيرة أختم بها في أهمية العقيدة: أن تعلُّم التوحيدِ يزيدُ في الإيمان ويقوِّي الإيمان، ويزكّي النفس في العمل بطاعة الله -عز وجل- والاجتناب عن معصيتِه، يعني إذا تأملت في العقيدةِ، ماذا تدرس في العقيدة؟ ما يتعلق بذات الله -عز وجل-: أسمائه وصفاته وأفعاله سبحانه، لا شك أن العبد إذا ازداد علمه بالله ازدادت خشيتُه من الله؛ لهذا قال الله -عز وجل- عن العلماء: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى اللهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ﴾ [فاطر: ٢٨]؛ فالعلماء هم أكثر الناس خشية لله؛ لأنهم أعلم بالله وأعرف بالله.

وأيضًا في العقيدة: تدرس على سبيل المثال ما يتعلق باليوم الآخر من القبر ونعيمه وعذابه والبعث والحساب والصراط والميزان والجنة والنار، كل هذا مما يزيد في إيمان العبد، إذًا دراسةُ العقيدة مما يقوِّي الإيمان ويزيدُ في الإيمان ويزكِّي النَّفسَ على طاعةِ الله -عز وجل- والابتعادِ عن معصيته.

يعني مما يُذكر من النماذج في مُدارسةِ العلم وتكراره، الشيخ محمد بن عبد الرحمن بن قاسم رحمه الله تلميذُ الشيخ محمد بنِ إبراهيم آل الشيخ رحمه الله مفتي الديارِ السعودية في زمانه شيخُ مشايخنا، الشيخ محمد بن قاسم قرأ ثلاثةَ الأصولِ على الشيخ محمد بن إبراهيم ستَّ مراتٍ، وكل مرةٍ يدوِّن ما يشرحه الشيخ محمد بن إبراهيم ولا يترك منه شيئًا بحروفِه، ستَّ مرات، وهذا يدلُّك على مَاذا؟ اليومَ أحدُ الطلابِ إذا درسَ ثلاثَة الأصول مرةً أو مرتينِ، قال إيش؟! خلاص فهمناها!، فسبحان الله تكرار العلم في كل مرة يُخرج لك ويظهرُ لك من العلم ما لم يظهرُ لك في المرةِ الأولى.

وثلاثة الأصول نافعةٌ جدًّا، ومثلُها كتابُ التَّوحيد: كتابُ التوحيدِ من أمتعِ ما أَلَّف الشيخ محمد -رحمه الله- وذُكرَ أنه من أولِ مؤلفاتِه.

فينبغي لطالبِ العلمِ، بل ينبغي لعمومِ المسلمينَ أن يعتنُوا بالعقيدةِ، لكنْ كلٌّ بحسبِ فهمِه، طالبُ العلمِ يتوسَّعُ في معرفة الدليلِ وما عندَ المخالفينَ والردِّ عليهم، ولكنْ عمومُ الناسِ لا أقلَّ من أن يعرفوا العقيدةَ بدليلِها، كما في هذه الرسالةِ المباركةِ، إن شاء الله.

أقدمُ بين يديْ هذهِ الرسالةِ ببعضِ المقدمات المهمةِ:

المقدمة الأولى: في ذكر طرفٍ يسيرٍ من سيرة الإمام المجدِّد الشيخ محمد من عبد الوهاب -رحمه الله تعالى- رحمةً واسعة؛ فهو الإمام المجدِّد شيخُ الإسلام محمد بن عبد الوهاب بن سليمان التميميُّ، وجدُّه الشيخ سليمانُ، من العلماءِ الكبارِ في زمانهِ، كان قاضيًا في (روضةِ الدير)، ثم بعد ذلكَ في العُيَيْنةِ، وكان مرجعًا لعلماءِ نَجْدٍ، تُوفيَ -رحمه الله- سنةَ ألفٍ وتِسعةٍ وسبعينَ، وأمَّا والدُه الشيخ عبد الوهاب فقد وَليَ القضاءَ في العُيينة بعدَ والدِه، ويعدُّ أيضًا من فقهاءِ الحنابلةِ في زمانه، لكنه دون والدِه في العلمِ والمكانةِ، وُلد الشيخُ محمد بن عبد الوهاب -رحمه الله- سنة ١١١٥ للهجرةِ في بلدِ العُيينة، وهي البلدُ المعروفةُ شمالَ مدينةِ الرِّياضِ، وكان -رحمه الله- منذُ صغرِه يتوقَّد ذكاءً وفِطنةً، وحافظتُه قويةٌ، حتى إنَّه حفِظَ القرآنَ ولم يبلغِ العاشرةَ، ودرسَ على يديْ والدِه وعلى عمِّه إبراهيمَ بعضَ كتبِ الفقهِ الحنبليِّ، ولأجلِ نبوغِه قدَّمه والدُه ليصليَ بالناسِ مع صغر سنِّه يعني قدَّمه للإمامة.

رحل الشيخ رحمه الله بعد بلوغه العشرين إلى مكة؛ لأداء الحج، ثم رحل إلى المدينة؛ لزيارة المسجد النبوي، وطلبَ العلمَ في هذه الرحلة على علماء الحرَمين، فكان من مشايخه في مكة: الشيخ عبدالله بن سالم البصري الشافعي وهو من علماء الحديث، ومن مشايخه في المدينة: الشيخ عبدالله بن إبراهيم بن سيف، وهذا الشيخ ابن سيف أصله من المَجْمَعَة في نجد، وقد قرأ عليه الشيخ محمد في الحديث والفقه والسيرة وغيرها، وقد توافق الشيخ ابن سيف مع الشيخ محمد بما في الواقع من مخالفةٍ من الشِّرك والبِدع والخُرافات ونحوها، من مشايخه في المدينة أيضًا: الشيخ محمد حياة السِّندي هو أحد علماء الحديث، والذي عُرف عنه نبذُ الشِّرك، ونبذُ -أيضًا- التقليدِ المذهبيِّ، رجعَ بعد ذلك الشيخُ إلى العُيينة وانكبَّ على كتب الشيخين ابن تيْميةِ وابن القيِّم رحمهما الله تعالى، وتعمَّق أيضًا في دراسة مذهب الإمام أحمد، ثم رحل بعد

ذلك إلى البصرةِ؛ لأجل طلب العلم، فطلب العلمَ على جماعة من علمائها، منهم الشيخ محمد المجموعي، وفي أثناء بقائه في البصرة قام بالإنكارِ على بعض المخالفين في الاعتقاد؛ يعني ممن عندهم شركياتٌ وبدعٌ، واستحسن الشيخ المجموعي ذلك الإنكار منه، وهذا فيه فائدة جليلة؛ لما قلت قبل قليل أن مشائخه يوافقونه، بعض مشائخ الشيخ يوافقونه على ما هو موجود من الشرك في الجزيرة وفي غيرها، هذا يدل على أن الشيخ لم يأتِ بشيء جديد، هناك من العلماء من ينكرون ذلك، لكن أولئك العلماء لم يجدوا ناصرًا لهم من الولاة، أما الشيخ محمد رحمه الله فوُفِّق بالإمام محمد بن سعود رحمه الله، فنصر هذه الدعوة، ثم إن الشيخ رجع من البصرة إلى الأحساء، والتقى ببعض علمائها كالشيخ عبد الله بن فيروز، هو ابن عمّة الشيخ محمد وكان عنده كثير من كتب شيخ الإسلام ابن تيمية وتلميذه ابن القيم، ثم رجع بعد ذلك إلى "حريملاء"؛ لأن والده انتقل من العيينة إلى حريملاء، بعد عودة الشيخ إلى حريملاء استمر في طلب العلم على يد والده وقام بالدعوة إلى التوحيد والنهي عن الشرك، فتعرض له بعض السفهاء وآذوه مما جعل والده يأمره بالكف عن ذلك، بعد وفاة والده في سنة ١١٥٣ للهجرة قام الشيخ بالدعوة إلى التوحيد فتعرض له بعض السفهاء مرة أخرى بالأذى حتى حاولوا قتله، فخرج من حُريمِلاء متوجهًا إلى العيينة وكان أميرها آنذاك ابن معمر وقد وعد الشيخ بالنصرة وفعلًا حصل منه النصرة للشيخ، وقام الشيخ بالدعوة إلى توحيد الله -عز وجل-، وقطع الأشجار التي يتبرك بها أو يتبرك بها الجهال، وهدم القباب التي على القبور، ومنها القبة المبنية على قبر زيد بن الخطاب رضي الله تعالى عنه في الجُبيلة القرية المعروفة أيضًا في شمال الرياض، لما اشتهر أمر الشيخ في العيينة وشاعت أخباره ظنَّ أعداء الدعوة أن ذلك مؤذِنٌ بضياع ملكهم يعني خشوا أن يتوسع حتى يأتي على بلدانهم، وكان ابن معمر يتلقى من أمير الأحساء بعض الخراج، فكتب أميرُ الأحساء لابن معمر كتابًا يتهدده أنه إن لم يطرد الشيخ من بلده وإلا قطع عنه ما يعطيه، فطلب ابنُ معمر من الشيخ محمد أن يفارقَ العيينة، فخرج الشيخ رحمه الله تعالى وتوجَّه إلى الدرعية؛ وذلك لوجود بعض تلاميذه هناك، فحصل اللقاء بينه وبين الإمام محمد بن سعود على النصرة لهذه الدعوة فانتشرت هذه الدعوة بفضل الله -عز وجل- في أرجاء كثيرة من الجزيرة.

هذا مختصر مجمل، ومن أراد التوسع في سيرة الشيخ -رحمه الله- تعالى؛ فليرجع إلى «عقيدة الشيخ محمد بن عبد الوهاب السلفية» للشيخ الدكتور صالح العبود؛ فهي مطبوعة في مجلدين، أيضًا ترجمة الشيخ -رحمه الله في كتاب «علماء نجد» خلال ثمانية قرون الشيخ عبد الله بن البسام، وأيضًا كتاب لسماحة الشيخ ابن باز رحمه الله بعنوان «الإمام محمد بن عبد الوهاب دعوتُه وسيرته»، وغيرها كثير من المؤلفات التي أُلِّفت في ترجمةِ الشيخ.

المقدمة الثانية: حالُ الجزيرةِ قُبيل دعوةِ الشيخ رحمه الله: انتشر في جزيرة العرب قبيل دعوة الشيخ رحمه الله تعالى أنواعٌ من الشرك والبدع والخرافات، وكان في بلاد نجد من ذلك أمر عظيم؛ يأتون- كما تقدم- إلى قبر زيد بن الخطاب -رضي الله تعالى عنه- في الجبيلة فيدعونه لتفريج الكُربات، وكان مشهورًا عندهم لقضاء الحاجات.

في الدِّرعية أيضًا يزعمون أن فيها قبورَ بعض الصحابة رضي الله تعالى عنهم، وكانوا يعكُفون على عبادتها.

وفي شِعيب غبيراء يزعمون أن فيه قبر ضَرار بن الأزْور -رضي الله تعالى عنه- وهو مكذوب عليه.

وفي الحجاز كان بمكة قبر أبي طالب رجلٌ من الأشراف وكان حاكمًا ظالمًا.

وفي الطائف قبر المحجوب وقبر ابن عباس رضي الله تعالى عنهما.

وفي سرِف قبر ميمونة رضي الله عنها أم المؤمنين.

وفي المعلاة قبر خديجة رضي الله عنها أم المؤمنين.

وفي جُدة قبر حواء رحمه الله تعالى كما يزعمون.

هذه القبور كلها يفعل عندها الشرك والمنكرات والبدع العظيمة.

أيضًا في المدينة يُفعل عند قبر النبي صلى الله عليه وسلم الأمورُ العظام التي لا يرضاها عليه الصلاة والسلام؛ من الانحناء له، والسجود له، ودعائه عليه الصلاة والسلام.

كذلك قبور الصحابة رضي الله عنهم البقيع وفي غيرها كانت تُقصد وتُدعَى من دون الله -جل وعلا-.

ولم يكن هذا في هذهِ البلاد فقط بل في بلدانٍ أخرى؛ كالبحرين وحضرمَوت واليمن وغيرها من البلاد؛ فقد انتشر الشرك فيها انتشارًا عظيمًا، إلا أن الله -عز وجل- لا يجمع الأمة على ضلالة، فهناك أناس باقون على توحيد الله -عز وجل-؛ لأنه لا تزال طائفةٌ من هذِه الأمةِ على الحقِّ ظاهرين حتى يأتيَ أمرُ الله -عز وجل-، فليس المقصود جميعَ الناس، هذا لا يمكن، لا بد أن تبقى باقيةٌ على التوحيد، لكنهم كانوا قلَّة، وكانوا ليس لهم سلطان وقوة في تغيير هذه المنكراتِ العِظام.

المقدمة الثالثة: تسميةُ دعوةِ الشيخ بالوهَّابية، أطلق الخصوم على دعوة الشيخ -رحمه الله تعالى- هذا اللقب تنفيرًا عن دعوته، وإيهامًا للناس أنه جاءهم بدين جديد كما يقول بعضهم: جاء بمذهب خامس، والشيخ رحمه الله تعالى لم يأتِ بشيء جديد، بل هو مجدِّد لما اندرَس من معالم دين الإسلام، وداعٍ إلى كتاب الله -عز وجل- وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم على فهم سلف الأمة، ولهذا ستجدون إن شاء الله -تعالى- في هذه الرسالة أن غالبَها استدلالٌ بالكتابِ والسنة، فضلًا عن النقول عن أئِمَّة الإسلام من السلف؛ إذ اللقب الصحيح لهذه الدعوة أن يُقال: الدعوة السلفية، وليست الدعوة الوهابية كما يلمزُ المعارِضون والمخالفون لهذه الدعوة؛ يلمزون أتباعَها، وهذه سنةٌ لأهل البدع من قديم؛ أنهم يلمزون أهلَ الحق بالألقاب المشينة لأجل التنفير عن دعوة الحق، فكان أهل البدع في زمان السلف يسمُّون أهل السنة بالمجسِّمة والمشبِّهة؛ لأنهم يُثبتون الأسماء والصفات لله -عز وجل- على ما يليق بجلاله وعظمته، كما أثبت ذلك لنفسه في كتابه وأثبته له رسول صلى الله عليه وسلم.

المقدمة الرابعة: رأي بعض المنصفين في دعوة الشيخ، يعني لو أتينا بأتباع الدعوة يُثنون على الدعوة لما قبل المخالف، أم لا؟ مع أنهم ما أثنوا إلا بحق، لكن مما يرد على أهل الباطل

أن يقال لهم: هناك أُناس ليس من أتباع الدعوة ومع ذلك أثنَوا على الدعوة؛ سواء كانوا من الجزيرة أم من خارج الجزيرة، كثير من بلاد مصر وسوريا وغيرها من البلاد وبلاد الهند، كثير من البلاد أثنوا على دعوة الشيخ محمد عبد الوهاب -رحمه الله تعالى- بل واتبعوها ونشروها في بلدانهم، بل إن الأمر يزداد إذا كان الذي يُثني على الدعوة هم خصومُ الدعوة، وكما قيل: الحقُّ ما شهِدتْ به الأعداءُ، فننقل بعض النقول في هذا، من هؤلاء المناوئين للدعوة:

عثمان بن سند البِصري، هو أحد خصوم الدعوة الألدَّاء الأشداء، له كلام شديد جدًّا في الدعوة، لكن انظر ماذا يقول؟

يقول: ومن محاسن الوهابية أنهم أماتوا البدعَ ومحوها، ومن محاسنهم أنهم أمَّنوا البلاد التي ملكوها، ومنعوا غزو الأعرابِ بعضِهم على بعضٍ، وصار جميع العرب على اختلاف قبائلهم من حضرموت إلى الشام كأنهم إخوان، أو إخوانُ أولادُ رجل واحد، ثم قال: وإلا ففي الحقيقة فأفعالهم يعني الوهابية، وآثارهم هي أفعال الحنابلة الأقدمين وهي أفعال أهل الحديث في القرون المتوسطة، وأفعال الظاهرية. هذا كلام المناوئ.

أيضًا الجبرتي المؤرخ المصري له كتاب في التأريخ بعنوان "عجائب الآثار"، وهو ممن عاصر هذه الدعوة، يعني عاصر سقوطَ الدِّرعِيَّة، يقول الجبرتي في تاريخه في أحداث سنة ١٢٢٧، الدرعية سقطت ١٢٣٣ يعني سقوط الدولة السعودية الأولى، يقول الجبرتي نقلًا عن بعض أكابر جيش محمد علي باشا الذين قاتلوا الدعوة السلفية في شبه الجزيرة يقول: وقد قال لي بعض أكابرهم يعني بعض أكابر الجيش الذي جاء من مصر لحرب هذه الدعوة، يقول من الذين يدعون الصلاح والتورُّع الآن هذا الذي يتكلم من كبارهم الذي يدَّعي الصلاح والتورع، يقول: "أين لنا بالنصر وأكثر عساكرنا على غير الملة، وفيهم من لا يتديَّن بدين ولا ينتحل مذهبًا وصحبتنا صناديق المُسكرات وَلَا يُسْمَعُ فِي عَرْصَتِنَا أَذَانٌ وَلَا تُقَامُ بِهِ فَرِيضَةٌ وَلاَ يَخْطُرُ فِي بَالِهِمْ وَلَا خَاطِرِهِمْ شَعَائِرُ الدِّين". هذا الآن كلام من؟ واحد من أكابر الجيش عن حال جيشهم، طيب الآن المقابل الوهابية عندكم ما حالهم؟ يقول: والقوم يعني أتباع الدَّعوة، دعوة الشيخ محمد، "والقوم إذا دخل الوقت أذَّن المؤذنون، وينتظمون صفوفًا خلف إمام واحد بخشوع وخضوع،

وإذا حان وقت الصلاة والحرب قائمة، أذن المؤذن وصلَّوا صلاة الخوف، فتتقدَّم طائفة للحرب وتتأخر الأخرى للصلاة، وعسكرنا يتعجَّبون من ذلك؛ لأنهم لم يسمعوا به فضلًا عن رؤيته"، هذا كلام من؟ كلام الأعداء المخالفين يثنون على الدعوة هذا يدلك على أي شيء؟ طبعًا نحن لسنا بحاجة لهذا، لسنا بحاجة إلى ثنائهم؛ لأن الشيخ -رحمه الله تعالى- من قرأ في كتبه وعرف دعوته ودعوة أتباعه وأنها دعوة على كتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم، هذا كافٍ في الثناء عليها واتِّباعها ولكن من باب إقناع المخالف، ويقول حتى الأعداء أثنوا على دعوة الشيخ رحمه الله تعالى رحمة واسعة، النُّقول في هذا كثيرة، هذا بعض ما نُقل لكن اختصارًا أترك هذا.

أنتقل بعد ذلك إلى المقدمة الخامسة: اتهام الشيخ رحمه الله تعالى بأنه قد خرج على الدولة العثمانية، الشبهة التي أثَّرت على الشيخ كثيرًا، لكن أذكر هذه الشبهة يزعم بعض المناوئين، يقولون الشيخ محمد عبد الوهاب كان في زمان الدولة العثمانية، والدولة العثمانية لها الخلافة على غالب أراضي المسلمين أليس كذلك؟ قالوا: فلما خرج محمد بن عبد الوهاب فهو خارج على دعوة على الدولة العثمانية فيكون خارجيًّا، ولهذا كثيرًا ما يصفون الدعوة وأتباع الدعوة بالخوارج، هذا كثير في كلام المناوئين والمخالفين، نرد على هذه الشبهة برد واضح، ويقال فيه: إن بلاد نجد التي ظهرت فيها دعوة الشيخ رحمه الله لم تشهد سلطة قوية ولا ولايةً، منذ سقوط الدولة الأُخَيْضِرية، الدولة الأخيضرية دولة أو هي يعني قام عليها أُناسٌ من العلويين، وكانت هذه الدولة سيئة السيرة استقلت بالسلطة على بلاد نجد من عام ٢٥٣ للهجرة، واستمر حكمها حتى سقطت في القرن الخامس الهجري، بعد سقوط الدولة الأخيضرية فإنه لم تُعرف حكومةٌ قوية على بلاد نجد، وإنما هي إماراتٌ متنازعة متفرقة، فالدرعية عليها أمير، والعيينة عليها أمير كما ذكرنا قبل قليل، والرياض عليها أمير وهكذا، طبعًا الرياض ما جاءت إلا متأخرة، المقصود أن بلاد نجد كانت عبارة عن إمارات متفرقة ليس هناك حاكم يعني له السلطة على كل هذه البلاد، ومن المعلوم أن بلاد نجد ليس فيها ما يرغب فيه؛ فلهذا الدولة العثمانية لم تهتم بهذه المنطقة؛ لأنها بعيدة عن المواقع المهمة التي يعني يُطلب السيطرة عليها.

بهذا يتبيَّن أن الشيخ رحمه الله ما خَرج على الدولة العثمانية؛ لأن بلاد نجد لم تكن تحت ولاية الدولة العثمانية، فضلًا عن أن الشيخ رحمه الله تعالى متبعٌ للسلف الصالح، وهو يعلم

ويقرِّرَ في كتبه أنه لا يجوزُ الخروج على الإمام وإن كان فاجرًا وإن كان ظالمًا لا يجوز الخروج عليه، الشيخ يعلم هذا ويقرر هذا، وعلماء الدعوة يقررون هذا، وكلامهم في هذا مستفيض، لكن نقول هذا حتى لو فرض فإنه لا توجد ولاية للدولة العثمانية على بلاد نجد، فلا يصح أن يقالَ إن الشيخ من الخوارج.

المقدمة السادسة: انتساب الجماعات التكفيرية المعاصرة لدعوة الشيخ رحمه الله تعالى، فقد سمعتم ورأيتم أن الجماعات التكفيرية المعاصرة كداعش وغيرها يدَّعون أنهم ينتسبون لدعوة الشيخ محمد، بل إن بعض المخالفين للدعوة يقول: إن سبب ظهور هذه الجماعات هو كُتب الشيخ محمد بن عبد الوهاب، وزادت الشبهة عندهم لما أن أولئك أصبحوا يطبعون كتاب التوحيد للشيخ محمد، يطبعون بعض كتب الشيخ وينشرونها، وربما يحتجُّون بكلام للشيخ أو ببعض كلام أتباع الدعوة السلفية في نجد، فراجت هذه الشبهةُ على بعض الناس، والحق أن الفرق كبير والبَوْن شاسعٌ جدًّا جدًّا بين دعوة الشيخ رحمه الله وبين هذه الجماعات التكفيرية المعاصرة، أذكر أربعة فروق وأكتفي بها:

الفرق الأول: الفَرق في النَّشأة إذا أردت أن تعرف حال أي جماعة ومدى صحة منهج هذه الجماعة فإنك تنظر إلى مؤسسي الجماعة وكبار الجماعة، خذ هذه قاعدة عندك، لو قيل لك أي جماعة ما حالها؟ انظر إلى من أسس الجماعة؟ مَن كبار هذه الجماعة؟ مَن علماؤها؟ من منظِّروها؟ إذا عرفت حالَهم عرفت حال الجماعة؛ لأن البقية أتباع للكبار، فالشيخ رحمه الله تعالى كما تقدم، الآن إذا قيل وهابية، من هم الوهابية؟ يقول أتباع محمد بن عبد الوهاب: من هو محمد بن عبد الوهاب؟ عرفتم شيئًا يسيرًا من سيرته رحمه الله، تقدم معنا أنه نشأ نشأة علمية من أسرة علم ورحل في طلب علوم الشريعة، واعتنى بكتب الشيخين ابن تيمية وابن القيم رحمهما الله تعالى، وألّف الكتب النافعة التي سارت بها الركبان في حياته وبعد مماته رحمه الله، وكذا حمَل راية الدعوة بعد الشيخِ العلماءُ من أبنائه وأحفاده وتلاميذه وعلماء هذه الدعوة إلى عصرنا، إذًا عرفنا الآن النشأة، الذي أنشأ هذه الدعوة الدعوة السلفية هم علماء من كبار علماء الشريعة في زمانهم، إذا نظرنا إلى الجماعات التكفيرية المعاصرة فإننا ننظر إلى مؤسسيها ومنظريها من هم؟ نجد أنهم ليسوا من أهل العلم الشرعي، فضلًا عن أن يكونوا من الراسخين في

العلم، بل إن كثيرًا منهم لم يُعرَف بطلبِ العلم الشرعي أصلاً، ولم يُعرَف بالدراسة النظامية في الكليات والمعاهدِ الشرعية، بل كانوا متأثرين بكتب بعض المفكرين الإسلاميين المعاصرين الذين تنضحُ كتبهم بالتكفيرِ للمجتمعات وتكفير الحكومات في البلاد الإسلامية؛ ولهذا فلا يُستغرب أن يوجد التكفير في كلامهم بل وعدم اعترافهم بولاية حكام المسلمين.

إذًا عرفنا الآن الفرق الأول من جهة النشأة، هؤلاء يعني من أسس هذه الجماعات التكفيرية لم يُعرفوا بعلم شرعي، وليس لهم أثرٌ في التأليف الشرعي ونفع المسلمين في فنون العلم، بخلاف دعوةِ الشيخ محمد رحمه الله؛ فالفرق فيها ظاهرٌ كبيرٌ.

الفرق الثاني: في مسألة التكفير الشيخ رحمه الله، الشيخ محمد عبد الوهاب وأتباعه على عقيدة أهل السنة والجماعة يقولون بقولهم في مسائل الإيمان ولا يكفِّرون إلا من كفَّره الله ورسوله صلى الله عليه وسلم، بل صرَّح الشيخ أنه لا يكفر إلا من أجمع علماء المذاهب الأربعة على تكفيره، من كلامه في هذا رحمه الله يقول: وأما ما ذكره الأعداء عني أني أكفِّر بالظن وبالموالاة أو أكفِّر الجاهل الذي لم تقم عليه الحجة، فهذا بهتان عظيم يريدون به تنفير الناس عن دين الله ورسوله.

ويقول الإمام عبد العزيز بن محمد بن سعود، الإمام عبد العزيز هو الذي خَلف والده الإمام محمد بن سعود في الولاية، يقول: وهذه الأنواع التي ذكرنا أننا نكفِّر من فعلها قد أجمع العلماء كلُّهم من جميع أهل المذاهب على كفر من فعلها، إذًا الشيخ وأتباعه يكفِّرون من كفَّر الله ورسوله وأجمع علماء المذاهبِ الأربعة على تكفيره.

لننظر الآن حالَ الجماعات التكفيرية المعاصرة فإنهم يكفِّرون بالظنِّ وبالشبهة، بل وبما ليس بمكفِّر عند أهل العلم، والكلام معهم في هذا يطول، إذًا هذا الفرق الثاني في مسألة التكفير.

الفرق الثالث بين دعوة الشيخ رحمه الله والجماعات التكفيرية: في التساهُل في سفك الدماء فالجماعات التكفيرية المعاصرة لا تتورُّع عن سفك الدماء بغير حق وإراقتهم للدماء المعصومة في هذا العصر أشهر من أن تُذكر؛ فهو امتداد لسلفهم من الخوارج المتقدمين، وهم كما وصفهم عليه الصلاة والسلام: يقتلون أهل الإسلام ويدَعُون أهل الأوثان؛ ولهذا يقول شيخ الإسلام ابن

تيمية رحمه الله: أهل البدع مثل الخوارج يبتدعون بدعة ويكفِّرون من خالفهم ويستحلُّون دمهم، يكفِّرون بغير علم ثم يبنون على هذا التكفير استحلال الدماء، وهذا يجعل خطرهم عظيمًا على الأمة.

أما الشيخ رحمه الله وأتباعه فهم أشد الناس تورعًا عن الدماء، يعني أعطيكم نقلًا واحدًا أو نقلين في هذه المسألة، سُئل أبناء الشيخ محمد بن عبد الوهاب رحمهم الله تعالى، فقيل لهم: مَن لَمْ تَشْمَلْهُ دَائِرَةُ إِمَامَتِكُمْ وَيَتَسَمَّ بِسِمَةِ دَوْلَتِكُمْ هل داره دار كفرٍ؟ هل داره دار كفر وحرب على العموم؟ يعني من لم يدخل معكم في دولتكم تحكمون عليه بأنه كافر؛ لأن هذا من الشبه التي تذكرها الأعداء يقولون للشيخ وأتباعه أنتم تقولون: مَن لم يدخُل معنا فهو الكافر.

هذا أبدًا مَا قاله الشيخ ولا قاله أتباعه، أجاب أبناء الشيخ طبعًا هذا السؤال بعد وفاة الشيخ رحمه الله، أجاب أبناء الشيخ فقالوا: الذي نعتقده وندين الله به أن من دان بالإسلام وأطاع ربه فيما أمر وانتهى عما نهى عنه وزجر فهو المسلم وحرام الدم والمال، كما دلَّ على ذلك الكتابُ والسنة وإجماع الأمة، ولم نكفر أحدًا دان بدين الإسلام لكونه لم يدخل في دائرتنا، ولم يتسمَّ بسمة دولتنا، بل لا نكفِّر إلا من كفر الله ورسولُه، ومن زعم أننا نكفِّر الناس بالعموم أو نوجِبُ الهجرة إلينا على من قدَر على إظهار دينه ببلده، فقد كذَب وافترى، كلام واضح.

الشيخ عبداللطيف بن عبد الرحمن بن حسن رحمه الله يقول: وأما القتال فلم يقاتل الشيخ يعني الإمام محمد من عبد الوهاب إلا على أصل الإسلام والتزام مبانيه العِظام، مش في أصل الإسلام، قاتلهم على الشرك وعلى الكفر بالله -عز وجل-، وعدم التوحيد، يعني يقول قاتلهم على أصل الإسلام، ومن نقل عنه أنه قاتلَ على غير ذلك فقد كذَب وافترى، ثم قال كلمة عظيمة، قال: على أنَّ بعض العلماء يرى القتال على ترك بعضِ الواجبات فكيف بما أجمع عليه سلفُ الأمة وأئمتُهم ما معنى الكلام؟ الفقهاء يذكرون في بعض المسائل أنه من ترك كذا فإنه يقاتل، من أمثلة ذلك: الأذان، ذكر الفقهاء في باب الأذان أنه إذا تركه أهل بلدٍ لا يؤذن فيهم مؤذن قالوا: يقاتلون على تركه، على ترك الأذان يقاتلون، طيب على ترك التوحيد، على فعل الشرك ما يقاتلون؟ يقاتلون، كما قاتل محمد عليه الصلاة والسلام كفار قريش، إذًا يُنظر أولًا في ثبوت

الشرك والكفر، إذا ثبت الشرك والكفر يترتب على ذلك القتال وهذا مرده إلى الإيمان، لكن المقصود: الدفاع عن هذه الدعوة، وبيان أن الفرق الكبير والبون الشاسع بين دعوة الشيخ رحمه الله تعالى وبين هذه الدعوات أو هذه الجماعات التكفيرية المعاصرة.

الفرق الرابع: في الآثار العلمية والعملية، دعوة الشيخ رحمه الله خلَّفت -كما تقدم- آثارًا علمية وتراثًا إسلاميًّا نافعًا منذ ظهر الشيخ إلى زماننا هذا، واتسمت هذه الآثار العلمية والكتب النافعة بالتحقيق العلمي خاصةً في مسائل الاعتقاد، فكُتب الشيخ وكُتب أئمة الدعوة مرجعٌ لمن جاء بعدهم من العلماء وطلاب العلم في هذه المسائل العظيمة.

أيضًا علماء الدعوة ممن أَلَّف في فنون العلم غيرِ التوحيد، فألفوا في الفقه، وألفوا في الحديث، وغير ذلك من الكتب النافعة.

وأيضًا أثمرت هذه الدعوةُ -دعوة الشيخ محمد- بردِّ الناس للكتاب والسنة على فهم سلف الأمة وأصبح الناس كما ذكر المناوئون قبل قليل، كأنهم أولاد رجلٍ واحد، اجتمعوا بعد الفُرقة وحصل الخير، وحصلت النعمة، ونحن الآن في هذا الزمان في هذه البلاد نعيش في آثار هذه النعمة، في أمن، وأمان، وخير، وتوحيد، وسنة، وقيامٍ بآثار الشريعة، فهذه نعمة عظيمة نعيش فيها من آثار تلك الدعوة المباركة، لكن انظر إلى الآثار العلمية والآثار العملية للجماعات التكفيرية المعاصرة، ما الذي حصل؟ أعطوني كتبًا نافعة أَلَّفوها، بل ألفوا في التَّنظير وفي إثارة الشُّبه لجماعاتهم الباطلة، فصارت هذه الكتب مما صرف الشباب عن المنهج الحق، وحادوا عن السنة إلى مذهب الخوارج عياذًا بالله.

أيضًا هم هؤلاء الجماعات ما وُجدت في بلد إلا وانتشر فيه الخوفُ وسُفكت فيه الدماء، وحصلت الفوضى إلى غير ذلك، فكيف تشبّه دعوة الشيخ رحمه الله بهذه الجماعات التكفيرية المعاصرة؟! لا شك أن هذا من أبطل الباطل، وإن كان هذا يروج على بعض الجهال أو بعض المغرضين الذين يصطادون في الماء العكر ويفرحون بمثل هذا لأجل أن يشوّهوا دعوة الشيخ رحمه الله تعالى رحمة واسعة، إذًا نخلص من هذا بأن الفرق بين دعوة الشيخ رحمه الله والجماعات التكفيرية المعاصرة ذكرتُ كم فرقًا؟ أربعة فروق:

الأول: في النشأة.

والفرق الثاني: في مسائل التكفير.

والثالث: تساهل هذه الجماعات في سفك الدماء، على خلاف ما عليه الشيخ وأتباعه.

والرابع: في الآثار العلمية، والآثار العملية.

المقدمة السابعة: في التعريف برسالة ثلاثة الأصول، اسم هذه الرسالة المشهور عند العلماء ثلاثة الأصول، وسماها بعضهم: الأصول الثلاثة، وبعضهم يسميها: الأصول الثلاثة وأدلتها، لكن المشهور ثلاثة الأصول، وهذا التركيب تركيبٌ صحيح من جهة اللغة، وموضوع الرسالة هو في تقرير التوحيد، وهو توحيد الألوهية، كما أنه قد قرر فيها أيضًا توحيدَ الربوبية، وبين -رحمه الله- أن الربَّ هو المعبود، وإذا كان -جل وعلا- هو- الربّ وحدَه، فليكن هو المعبود وحده.

وفي الأصل الثاني: ذَكر معرفة الدين، معرفة العبد دينَه، وبيّن أن الإسلام هو الاستسلام لله بالتوحيد، إلى آخر ما ذكره.

وفي الأصل الثالث: ذَكر معرفةَ العبدِ نبيَّه صلى الله عليه وسلم، وذكر في هذا الأصل أنه ما من خيرٍ إلا ودلَّ الأمةَ عليه، وأن أعظم ما دعا إليه هو التوحيد، وما من شرٍّ إلا وحذرها منه وأعظم ما حذر منه ونهى عنه هو الشرك، فتجد أن هذه الأصول الثلاثة يجمعها أمرٌ مشترك، وهو تقرير توحيدِ الألوهية.

نقل الشيخ عبد الرحمن بن قاسم رحمه الله في حاشيته على ثلاثة الأصول، عن المؤلف رحمه الله أنه قال: قررتُ ثلاثةَ الأصول: توحيدَ الربوبية، وتوحيدَ الألوهية، والولاءَ والبراء، وهذا هو حقيقة دين الإسلام، وأما زمن تأليف هذه الرسالة فقد ألفها الشيخ رحمه الله تعالى في زمانٍ اشتدت فيه غُربة الإسلام، يعني لا تستغرب وضوح بعض المسائل عندك، من ربك؟ تقول: أمر واضح أنا أعرف أن ربي الله، ما دينك؟ ديني الإسلام، من نبيك؟ نبيي محمد عليه الصلاة والسلام، تقول: هذا أمر واضح بين، أنت تتكلم عن زمانك زمان الخير ولله الحمد

وزمان التوحيد وانتشار الدعوة، لكن الشيخ رحمه الله ألفها في زمان لا يعرفون من التوحيد الا توحيد الربوبية، لا يعرفون توحيد العبادة؛ ولهذا صرفوا العبادة لغير الله -عز وجل-، فانتشر عندهم الجهل.. انتشرت عندهم الخُرافات والبِدع؛ فلهذا اعتنى الشيخ رحمه الله في هذه الرسالة بتسهيل العبارة، العبارة سهلةٌ واضحة في هذه الرسالة؛ لأنه أراد أن يخاطب عامة الناس، كما سيأتي إن شاء الله.

جاء في الدُّرَرِ السَّنِيَّةِ في سبب تأليف هذه الرسالة: هو طلب الأمير عبد العزيز بن محمد بن سعود من الشيخ رحمه الله أن يكتبَ رسالة موجزةً في أصول الدين، فكتب هذه وأرسلها عبد العزيز إلى جميع النواحي، وأمر الناس أن يتعلموها، ثم ذكر هذه الرسالة، إذًا عرفنا الآن أن الأمير من حرصه على دعوة الناس على التوحيد يأمر الشيخ يقول: أَلِّف لنا رسالة في ما يحتاجه الناس في أصول الدين، ثم الأمير يأمر بتعميمها، يعني قد يؤلف العالم لكن لا ينتشر العلم، لكن بالسلطان ينتشر العلم، فاجتمع العالم مع الأمير على محبة التوحيد والدعوة للتوحيد فانتشر الخير، إذًا هذا هو سبب تأليف الرسالة، إلا أن هذه الرسالة التي أرسلها الأمير عبد العزيز رحمه الله تختلف بعض الشيء عن النسخة المشهورة وهي التي بين أيدينا ونتدارسها اليوم من جهة وجود بعض الزيادة أو النقص أو اختلاف العبارة، وإن كان المضمونُ واحدًا وهو تقرير التوحيد، وهنا تنبيه إلى أن الشيخ -رحمه الله- ألف رسالة ثلاثة الأصول أكثرَ من مرة؛ ولهذا تجد في الدرر السنية أربعَ رسائلَ كلها تعدُّ من الأصول الثلاثة أو ثلاثة الأصول، أربع رسائل لكن فيها اختلاف في زيادةٍ يسيرة، أو في نقصٍ يسير، أو إضافة دليلٍ ونحو ذلك، لكن الرسالة المشهورة هي التي بين أيدينا الآن، هذه هي التي اعتمدها العلماء وشرحها العلماء، يعني تعرف الفرق بين تكرار التأليف واختلاف النُّسخ، واضح لكم الفرق هذا، يعني اختلاف النسخ يكون المؤلف ألف هذا المؤلف مرة واحدة، لكن النساخ هذا نقل وهذا نقل ثم اختلفت النسخ، لكتاب واحد أو رسالة واحدة، هنا نقول أربع نسخ موجودة في الدرر السنية كلها ألفها الشيخ، فهي من تعدد التأليف وليس من اختلافِ النُّساخ.

انتقل بعد ذلك إلى أهمية هذه الرسالة وما تميزت به: اشتملت هذه الرسالة على أصول عقدية مهمة، فهي جامعة لما يُسأل عنه العبد إذا وُضع في قبره، فإنه يسأل من قبل الملكين من

ربُّك؟ ما دينك؟ من نبيك؟ هذه الأصول الثلاثة التي قامت عليها هذه الرسالة، أيضًا لا يُعرف أن أحدًا من أهل العلم أفرد هذه الأصول الثلاثة بالتأليف قبل الشيخ محمد رحمه الله تعالى رحمةً واسعة، نعم هذه الأصول الثلاثة موجودة في الكتاب والسنة وكلام أهل العلم، لكن المقصود أن تُجمع في رسالة واحدة ويخاطب بها الناس، هذا مما انفرد به الشيخ رحمه الله، أيضًا مما يدل على أهمية هذه الرسالة: تلقِّي علماء السنة لهذه الرسالة بالقبول، فمن جاء بعد الشيخ رحمه الله اعتنى بهذه الرسالة؛ إما بشرحها أو وضع حاشية عليها أو تدريسِها في المساجد أو غير ذلك من أوجه العناية، وكان العلماء يحثُّون عامةَ الناس على حفظها وفهمها.

يقول الشيخ عبد الرحمن بن حسن رحمه الله تعالى حفيد الإمام المجدد عن "رسالة ثلاثة الأصول" و"رسالة القواعد الأربع" يقول: فما أعظمَ نفعها على اختصارها لطالب الهدى!.

أيضًا مما تميزت به هذه الرسالة: عناية المؤلف فيها بذكر الأدلةِ من الكتاب والسُّنة، فقد ذكر فيها ستينَ نصًّا من الأدلة النقلية، هذه الرسالة على قصِرها تضمنت مع المقدمات ستِّينَ دليلاً من الكتاب والسنة، وهذا يدلك على عناية الشيخ رحمه الله تعالى بالاستدلال.

أيضًا مما تميزت به هذه الرسالة: سهولة عبارتها ومناسبتُها لفهم عامة الناس، وكما تقدمت الإشارة إليه أن الشيخ أراد بتأليفِ هذه الرسالة أن يخاطبَ عموم المسلمين.

***

وكمَا تقدَّمت الإشارةُ إليه أن الشيخ أرادَ بتأليف هذه الرسالة أن يخاطبَ عموم المسلمينَ.

قبل قليلٍ عرفنا أن الإمام عبد العزيز -رحِمَه اللهُ- أرسل هذه الرسالة إلى البلدان وأمر أن تُقرأ عليهم وأن تُشرح لهم، هذا أيضًا إلى عهدٍ قريب كان موجودًا، بل لما فُتحت المدارس النِّظامية قُررت هذه الرسالة على طلاب المرحلة الابتدائية -كما تعلمون.

من مزايا هذه الرِّسالة حسن تَصنيفها وتَرتيبها وما فيها من التشويق، الشيخ -رحِمَه اللهُ- يأتي بكلام مجمل، ثم يأتي بكلام مفصلٍ، وهذه طريقة معروفةٌ عند البلاغيينَ وسيأتي -إن شاء الله تعالى- الوقوف على هذا في أثناء الكلام على الرسالة.

أيضًا طريقة السؤال، والجوابُ فإذا قيل لك: بم عرفت ربكَ؟ فقل عرَفته بآياته ومخلوقاته، هذا لا شك أنه يشد الذهن ويجعل السامع متشوِّق إلى فهم هذه الرسالة، وهذه أيضًا طريقة البلاغيين وهي أيضًا طريقة النبي صلى الله عليه وسلم كما جاء في الحديث: «أتدرون ما الغيبة» - تتشوق النفوس الآن أم لا؟ قال: - «ذِكرُك أخاكَ بما يكرهُ»، فكذلك الشيخ سار على هذه الطريقة، وهذه طريقةٌ نافعة، سواء في الدعوة إلى الله -عزَّ وجلَّ- أو في التأليف لما تقدم وغيره، اعتنى العلماء رحمهم الله تعالى بهذه الرسالة رسالة ثلاثة الأصول كما تقدم.

فأوَّل شرح عليها: يعني شرح مدوَّن هو شرح الشيخ محمد بن إبراهيم مفتي الديار السعودية في زمانه -رحِمَه اللهُ- وتوفي سنة ١٣٨٩ للهجرة، وهذا الشرح -كما ذكرت لكم- كتب الشيخ محمد بن القاسم معه مرارًا ثم خرج هذا الشرح مؤخرًا، أخرجه حفيده الشيخ عبد المحسن القاسم وفقه الله.

ممن شرح هذه الرسالة أيضًا سماحة الشيخ ابن باز، والشيخ ابن عثيمين، والشيخ ابن فوزان، وأيضًا وضع عليها حاشية الشيخ عبد الرحمن بن القاسم، وغيرهم كثير من أهل العلم ممن اعتنى بهذه الرسالة، يعني من صور العناية بهذه الرسالة أن بعضهم نظمها شعرًا، وبعضهم اختصرها، وإن كانت هي مختصرة وبعضهم رتَّبها على هيئة سؤالٍ وجوابٍ، جعلها كلها على هيئة السؤال والجواب، وبعضهم جعل لها مدخلًا، وغير ذلك من صور العناية بهذه الرسالة، وهذا كله يؤكد ما تقدم من العناية بالتوحيد عمومًا، وبهذه الرسالة على وجه الخصوص ونبَّه قبل الدخول في مدارسة هذه الرسالة أن النسخة المشهورة لهذه الرسالة فيها ثلاث مقدمات قبل رسالة ثلاثة الأصول .

المقدمة الأولى: وهي التي تبدأ من قول المؤلف -رحِمَه اللهُ- اعلم -رحمك الله- أنه يجب علينا تعلُّم أربع مسائل، وهي التي قرأ الشيخ قبل قليل، هذه رسالة مختصرة تعدُّ مقدمة ليست من رسالة الأصول الثلاثة.

الرسالة الثانية: من المقدمات تبدأ من قوله -رحِمَه اللهُ- اعلم -رحمك الله- أنه يجب على كل مسلم ومسلمه تعلُّم هذه الثلاث مسائل. هذه المقدمة الثانية رسالة مختصرة أيضًا.

الرسالة الثالثة: تبدأ من قول المؤلف -رحِمَه اللهُ- اعلم -أرشدك الله لطاعتِه- أن الحنيفيَّة ملةُ إبراهيم. إلى آخره.

هذه المقدمات الثلاث، رسائل مختصرة موجودة في نسخة واحدة، أرجعت "الدرة السَّنية" التي فيها الأربع نسخ التي ذكرت لكم، هذه لا توجد إلا في نسخة واحدة، وهي النسخة المشهورة المتداولة عند العلماء التي شرحوها والتي يحفظها طلاب العلم.

ولهذا قال الشيخ ابن قاسم: قد يعني يردُ سؤالٌ الآن: مَن الذي أدخل هذه الثلاث المقدمات على رسالة ثلاثة الأصول؟

يقول الشيخ عبدُ الرحمنِ بنُ قاسمٍ رحمه الله في حاشيتِه: لما قال المؤلف: فإذا قيل لك: ما الأصول الثلاثة التي يجب على الإنسان معرفتها؟ قال ابن قاسم -رحِمَه اللهُ-: وهي المقصودة بهذه النبذة وما تقدمها من المسائل، فلعل بعضَ تلامذته أو بعض تلاميذه قرنها بها، يعني الثلاث رسائل مختصرة، هذه التي هي مقدمات لعلها من إضافة بعض التلاميذ، إذًا ليست هي من رسالة الأصول الثلاثة.

بهذا يتبين أن الأصول الثلاثة تبدأ أو ثلاثة الأصول تبدأ من قول المؤلف -رحِمَه اللهُ-: فإذا قيل لك: ما الأصول الثلاثة التي يجب على الإنسان معرفتها؟ إلى آخره، هنا تبدأ الرسالة إلى آخرها إلى آخر ما هو بين أيديكم، هذه رسالة الأصول الثلاثة، لكن ما قبلها من هذه المقدمات هي من كلام الشيخ، وهي أيضًا نافعةٌ ومفيدةٌ، كما سيأتي -إن شاء الله تعالى- الكلام عليها، لكن المقصود أنها ليست داخلة في رسالة ثلاثة الأصول.

نشرع في الرسالة الأولى من المقدمات قال -رحِمَه اللهُ-: بسم الله الرحمن الرحيم ابتدأ المصنف -رحِمَه اللهُ- هذه الرسالة بالبسملة؛ وذلك اقتداءً بكتاب الله -عزَّ وجلَّ- فإنه مبدوء بالبسملة، وتأسيًا بالنبي صلى الله عليه وسلم في مكاتباته ومراسلاته، فإنه كان يبدؤها بالبسملة كما في الصحيحين في رسالته إلى هرقل. قال: اعلم -رحمك الله-، كلمة اعلم يُؤتى بها عند ذكر الشيء، المهم الذي ينبغي أن يُعتنى به، ولا شكَّ أنَّ ما قرره الشيخ -رحِمَه اللهُ- في هذه الرسالة من أصول الدين لا شك أنه أمر مهم ينبغي العناية به.

اعلم -رحمك الله-، هذا دعاء من الشيخ -رحِمَه اللهُ- تعالى للطالب ولمن يقرأ هذه الرسالة، ومعنى رحمك الله: أي غفرَ لك ما مضى ووفَّقك وعصمَك فيما يُستقبل، والشيخ -رحِمَه اللهُ- يستعمل هذه العبارة ونحوها كثيرًا في مؤلفاته: قال: اعلم -رحمك الله. اعلم -أرشدك الله- لطاعته. وغير ذلك، وهذا يدل على نُصحه ومحبته وشَفقته على المتعلم؛ فهو يعلمك ويدعو لك، وقول رحمك الله هذا فيه التنبيه على أن مبنَى هذا العلم على الرحمة بالمتعلمين.

ولهذا كان العلماء يروون لمن بعدهم ممن طلب الإجادة في الحديث يروون له حديث «الرَّاحمُونَ يرحمُهمُ الرحمنُ، ارْحمُوا مَن في الأرضِ يرحَمكُم مَن في السَّماءِ»، وهذا الحديث يُعرف بالحديث المُسَلْسَل بالأولويَّةِ، فكل من أخذ هذا الحديث عن شيخٍ يقول: وهو أول حديثٍ سمعتُه منه. أول ما يُعلَّمون من أحاديث رسول الله صلى الله عليه وسلم ويُروَى لهم من حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم هو هذا الحديثُ المتعلق بالرحمةِ، فمبنى هذا العلم على الرَّحمةِ.

قال -رحِمَه اللهُ-: أنه يجب علينا تعلُّم أربع مسائل: يعني يجب على كل مكلَّفٍ من ذكرٍ أو أنثى أن يتعلَّم هذه المسائل الأربع.

المسألة الأولى: العلم، قال: وهو معرفة الله، ومعرفة نبيه، ومعرفة دين الإسلام بالأدلة، العلم: هو معرفة الهدى بدليله، وإذا أُطلق العلم في نصوص الكتاب والسنة، وعلى لسان علماء الشريعة، فالمراد بالعلم: العلم الشرعي، وهذا العلم منه ما هو فرضُ عينٍ ومنه ما هو فرضُ كفايةٍ، وما ذكره المؤلف -رحِمَه اللهُ- في هذه الرسالة هو من فرض العين.

قال: وهو معرفة الله، يعني بما تعرَّف به إلينا في كتابه وفي سنة رسوله صلى الله عليه وسلم؛ من أسمائه وصفاته وأفعاله، ومعرفة الله تعالى تكون بالنظر في الآياتِ الشرعية، يعني الآيات القرآنية، وأيضًا فيما جاء في سنة النبي صلى الله عليه وسلم، وأيضًا في النظر في الآيات الكونية التي هي مخلوقات لله -عزَّ وجلَّ-؛فإن الإنسان كلما نظر في هذه الآيات، الآيات الشرعية

والآيات الكونية كلما ازداد علمًا بخالقه سبحانه وتعالى قال الله -عزَّ وجلَّ-: ﴿وَفِي الْأَرْضِ آيَاتٌ لِلْمُوقِنِينَ * وَفِي أَنْفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾ [الذاريات: ٢٠،٢١].

قال: هو معرفة نبيِّك؛ أي تعرف نبيك وهو محمد عليه الصلاة والسلام بأن الله -عزَّ وجلَّ- أرسله بالهدى ودين الحق، وجعل شريعته خاتمة الشرائع وأرسله إلى الناس كافةً، أرسله إلى الثَّقلين الجن والإنس، وغير ذلك مما سيأتي معنا -إن شاء الله تعالى- مفصلاً في الأصل الثالث.

قال: ومعرفة دين الإسلام بالأدلة: الإسلام له معنى عام، وله معنى خاص

أما المعنى العام للإسلام: فهو التعبد لله -عزَّ وجلَّ- بما شرع منذ أن أرسل الرسل عليهم الصلاة والسلام إلى أن تقوم الساعة؛ فكلُّ نبي من أنبياء الله -عزَّ وجلَّ- إنما يدعو إلى الإسلام، هذا هو الإسلام بالمعنى العام، وقد دلَّ عليه عدةُ آيات:

قال الله -عزَّ وجلَّ-: عن إبراهيم عليه الصلاة والسلام: ﴿رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُسْلِمَةً لَكَ﴾ [البقرة: ١٢٨]، الإسلام في زمان إبراهيم يُراد به اتِّباع شرع الله -عزَّ وجلَّ- والذي أعظمه توحيد الله سبحانه، فإن الأنبياءَ كلَّهم يدعون إلى توحيد الله -عزَّ وجلَّ- ونبذ الشرك عنه.

وقال الله -عزَّ وجلَّ-: عن التوراة وعن أنبياء بني إسرائيل قال: ﴿يَحْكُمُ بِهَا النَّبِيُّونَ الَّذِينَ أَسْلَمُوا﴾ المائدة: ٤٤] فدلَّ هذا على أن الإسلام بالمعنى العام يُطلق على جميع ما جاء به الرسل عليهم الصلاة والسلام،

وأمَّا الإسلام بالمعنى الخاص: فهو الدِّين الذي بُعِث به محمد صلى الله عليه وسلم وجعله الله -عزَّ وجلَّ- خاتمًا للأديان لا يُقبل من أحد دين سواه، فأتباع الرسل هم مسلمون، لكن من أدرك منهم محمدًا عليه الصلاة والسلام فيجب عليه أن يتبعه، فإن لم يتبع محمدًا عليه الصلاة والسلام فقد كفَر؛ لقول الله -عزَّ وجلَّ-: ﴿وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ﴾ [آل عمران: ٨٤] يعني لو جاءني الآن في هذا الزمان نصراني ويقول أنا متبع للإنجيل الذي نزل على عيسى عليه السلام على فرض أنه غير محرَّف، قل: لا أخالفه في شيء، طيب تتبع محمدًا عليه الصلاة والسلام؟ قال: لا، ما أتبعه. نقول: أنت كافر. لماذا؟ لأن دين محمد عليه الصلاة

والسلام قد نسخ الأديانَ السابقة: ﴿وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا﴾ [آل عمران: ٨٥]؛ يعني الإسلام الذي جاء به محمد عليه الصلاة والسلام ﴿فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ﴾.

الله -عزَّ وجلَّ- يقول: ﴿وَإِذْ أَخَذَ اللهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ لَمَا آتَيْتُكُمْ مِنْ كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ وَلَتَنْصُرُنَّهُ﴾ [آل عمران: ٨١]، فالله -عزَّ وجلَّ- أخبرنا أن الأنبياء كلّق منهم يقول لقومه: إذا جاءكم محمد أو أدركتم زمان محمد عليه الصلاة والسلام فاتبعوه، فدلَّ هذا على أن من اتبع غير ملة محمد عليه الصلاة والسلام فإنه كافرٌ، وهذا يظهر لك بجلاء أن اليهود الآن كفار، والنصارى كفار، هذا كله على فرض أنهم على ملةٍ غير محرفة، فكيف وهي محرَّفة؟ لأن هناك من يدعو الآن -مع الأسف- من يقول: كل هؤلاء أتباع أديان سماوية، وكل هؤلاء أتباعٌ لرسل أرسلهم الله -عزَّ وجلَّ- وكل هذا باطل. بعد بِعثة محمد صلى الله عليه وسلم لا دين إلا دين الإسلام الذي جاء به، فمن اتبع غيره من الأديان فهو كافر.

قول المؤلف -رحِمَه اللهُ-: ومعرفة دين الإسلام بالأدلة: فيه الإشارة إلى أن التقليد لا ينفعُ في باب العقائد وأنه لا بد من معرفة الدين، دين الإسلام بالأدلة من كتاب الله وسنةِ رسوله صلى الله عليه وسلم، وإجماع الأمة؛ وذلك أن مَن كان علمُه بالاعتقادِ من غير دليل، يعني بالتقليد؛ فهذا مظِنةٌ لزعزعة دينه وتأثره بالشُّبه التي تثار بين وقت وآخر، فهذا عرضه لأن يزل وأن ينحرف عن هذا الدين، فكان لا بد أن يعرف دينه بالأدلة.

قال الثانية: العمل به: الأولى تقدمتْ معنا العلم، والثانية العمل به، ولا شك أن العمل هو ثمرة العلم وعلمٌ لا يتبعه عملٌ لا فائدةَ منه، فلا بد من العلم بدين الإسلام والعمل بما يقتضيه دين الإسلام، والعمل بالعلم، منه ما تركه كُفر ومنه ما تركه معصية، ومنه ما هو دون ذلك.

فالعلم بتوحيد الله -عزَّ وجلَّ- وأنه -جلَّ وعلا- هو المستحق لأن يُعبَد دون ما سواه، هذا العلم مَن تركَه، ما حكمه؟ تركَ العمل بهذا العلم، تركَ العملَ بالتوحيد، هذا تركٌ للعلم يُخرِج من الملة، أما ما تركه معصية كمن علِم أن الخمرَ محرمة، لكنه يشربها هذا ترك العلم، فهذا لا يُخرجه من الملة وإنما يكون عاصيًا.

الثالثة: الدعوة إليه إذا حصل للعبد بتوفيق الله -عزَّ وجلَّ- العلم بدين الإسلام والعمل به ينتقل إلى مرتبة ثالثة، وهي الدعوة إلى دين الإسلام، فيدعو إلى هذه النعمةِ التي أنعم الله -عزَّ وجلَّ- بها عليه، وأن جعلَه من أهل الإسلام وأهل التوحيد يدعو الناس إلى دين الله سبحانه.

والدعوة حكمها: فرض كفاية؛ إذا قام بها من يكفي سقطَ الإثم عن الباقين، ولكنها تتأكد في هذا الزمان، فالظاهر -والله أعلم- أن الدعوة إلى دين الإسلام وإلى شرائع الإسلام لن يحصل بها فرض الكفاية، فهذا يؤكد على كلِّ مَن عنده علم أن يدعو إلى ما تعلَّم، فإذا تعلمت مسألةً من مسائل العلم وتحقَّقت منها وعرفتها بدليلِها فادْع إليها، ولكن لا يتكلَّف الإنسان في الدعوة ما لا يعلم، فإن هذا لا يحلُّ له، وإنما يدعو فيما علم؛ لأن من يدعو بغير علم ما يفسد أكثر مما يصلح، وهذا موجود الآن في بعض الجماعات التي انبرتْ في الدعوة على غير علم؛ كجماعة التبليغ، فهذه الجماعة لا يعْتنون بالعلم، أصل الجماعة ومبناها وأصولها ليس عندهم عناية بالعلم الشرعي أبدًا، بل ليس عندهم في أصل الجماعة عناية بعقيدة التوحيد.

وكما قلت -قبل قليل- إذا أردت أن تعرفَ جماعة فإنك ترجع إلى كبارها ومؤسسيها: مَن مؤسس جماعة التبليغ؟ محمد إلياس الكاندهلوي. ما عقيدته؟ صوفي ماتريديٌّ أخذ الطرق الصوفية على مشايخه، كيف ترجو من مؤسس صوفي أن يدعو الناس إلى توحيد الله عزَّ وجلَّ؟

ما يمكن هذا، فاقد الشيء لا يعطيه، ومن العجب أن تجد من أتباع أو من بعض إخواننا الذين يظهر منهم النية الصالحة والمحبة للخير أن يتبعوا هذه الجماعة ويسافروا إلى اجتماعاتها في بلدان أخرى، ويسيرون على طريقتهم في الدعوة، ويتركون ما عندهم من علماء الشريعة ومن النعمة العظيمة نعمة التوحيد في هذه البلاد والخير الكثير ويتبعون هذه الجماعات البدعيةِ الضالَّة.

النبي عليه الصلاة والسلام يقول الله -جلَّ وعلا- في شأنه: ﴿قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللهِ عَلَى بَصِيرَةٍ﴾ [يوسف: ١٠٨]، ما معنى على بصيرة؟ على علمٍ، أدعو على علم ﴿أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي﴾ يعني وأتباعي يدعون على بصيرة: يعني على علم، أما من ينبري للدعوة ولم يشتغل

بالعلم الشرعي، فهذا خطأ، سيقال أولًا تبدأ بالتعلم، كما ذكر الشيخ هنا الآن قال: العلم والعمل، ثم الدعوة إلى الله -عزَّ وجلَّ- كما في هذه المرتبة.

المرتبة الرابعة: الصبر على الأذَى فيه: مَن قام بدين الإسلام، ودعا الناسَ إليه فقد تحمَّل أمرًا عظيمًا وقام مقام الأنبياء والرسل في الدعوة إلى هذا الدين، ولأن من دعا إلى الله -عزَّ وجلَّ- فإنه يسعى إلى أن يحول بين الناس وبين شهواتهم، يعني أهل الشرك لهم محبة أو عندهم محبة لآلهتهم، حتى إنهم يقاتلون عليها، وأهل المعاصي يحبون المعاصي والشهوات، وتميل أنفسهم إليها، فالداعي إلى الله -عزَّ وجلَّ- كأنه يحول الآن بين الناس وبين ما يرغبون وبين شهواتهم، هل تظن أن الناس سوف يستقبلونك بالمحبة وباللطف؟ الغالب أن من دعا إلى دين الله أنه يؤذَى؛ ولهذا لما نزل الوحي على النبي عليه الصلاة والسلام فخاف وجعل خديجة رضي الله عنها وأخذته إلى ورقَةَ بن نوفلٍ رضي الله تعالى عنه ماذا قال له؟

قال: يا ليتني فيها جدعًا إذ يُخرجك قومك يعني حتى أنصرك لأنه كان كبير في السن، فقال عليه الصلاة والسلام متعجبًا! أو مخرجيَّ هم؟! سيخرجونني من بلدي؟ قال: ما جاء أحد بمثل ما جئت به إلا عُودي، لا بد من هذا، إذا كان الإنسان سوف يُعادَى إذا دعا الناس للتوحيد ودعاهم إلى دين الله، فهنا يتحتَّم عليه أن يتحلى بالصبر؛ ولهذا قال الشيخ: الصبر على الأذى فيه.

ولهذا قال الله -عزَّ وجلَّ-: للنبي عليه الصلاة والسلام: ﴿فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُولُو الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ﴾ [الأحقاف: ٣٥]، والداعي إلى لله -عزَّ وجلَّ- إذا لم يكن عنده الصبر فإنه يستخفُّه الذين لا يوقنون، كما قال الله -عزَّ وجلَّ-: ﴿فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللهِ حَقٌّ وَلَا يَسْتَخِفَّنَّكَ الَّذِينَ لَا يُوقِنُونَ﴾ [الروم: ٦٠]، لا بد أن يكون حليمًا لو أمر الناس بالخير فشنَّعوا عليه، وبعضهم يقولون: ما عليك مني، اتركني، وغير هذا من الكلام لا يكون عندك انتصار لنفسك لا تنتصر لنفسك، أنت ماذا تريد؟ أنت تريد دعوة الناس، بلَّغتهم وأديت ما يجب عليك؛ إن اهتدوا، فبحمد الله وإن لم يهتدوا فقد بلَّغت وأديت ما أمرك الله -عزَّ وجلَّ- به. هذه المراتب الأربع.

ذكر الشيخ الدليل عليها، قال: والدليل قوله تعالى: بسم الله الرحمن الرحيم ﴿وَالْعَصْرِ *إِنَّ الْإِنْسَانَ لَفِي خُسْرٍ * إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ﴾ [سورة العصر] أقسم الله -عزَّ وجلَّ- بالعصر، والله -عزَّ وجلَّ- عظيمٌ، لا يُقسم إلا بعظيم من مخلوقاته؛ فهو -جل وعلا- يُقسم بنفسه، أو يقسم بمخلوقٍ من مخلوقاته، فأقسم بالضَّحى، وأقسم بالليل، وأقسم بالنهار، وهنا في هذه السورة أقسم بالعصر؛ وذلك لشرفِ العصر، العصر: هو الزمان الذي تفعل فيه الطاعة أو المعصية، أن تَعبد الله -عزَّ وجلَّ- في أي شيء في هذا الزمان، في العصر، والمخالف يعصي الله -عزَّ وجلَّ- بشِركٍ أو بما دونه أيضًا في العصر في الزمان؛ فلهذا الزمان له شرفٌ أقسم الله -عزَّ وجلَّ- به.

ثم قال: ﴿إِنَّ الْإِنْسَانَ لَفِي خُسْرٍ﴾ [العصر: ٢]، هذا جواب القسم، يعني المقسم عليه، ﴿إِنَّ الْإِنْسَانَ﴾: يعني جنس الإنسان، بمعنى: كل إنسان فـ (ال) في قوله: ﴿الْإِنْسَانَ﴾ هذه جنسية، وعلامة (ال) الجنسية أن يصحَّ أن يوضعَ مكانَها كلمة كل، فيستقيم الكلام، يعني هنا الآن لو قيل: إن كل إنسان لفي خُسرٍ، يستقيم الكلام أو لا؟ يستقيم، فدل على أن (ال) في قوله: ﴿الْإِنْسَانَ﴾ هذه الجنسية؛ فالمعنى: كل إنسان في خُسر، يعني: في خَسارٍ، وفي ضَياعٍ، وفي هلاكٍ، ثم استثنى الله -عزَّ وجلَّ- من اتَّصف بأربع صفاتٍ.

فقال: ﴿إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا﴾ يعني: ليسوا في خَسار، وهذا يوجِب أن نجتهدَ فنكونَ من أهل الإيمان؛ لئلا يحصل لنا الخسار والهلاك: ﴿إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ المعلوم أن الإيمان لا يكون إلا بعلم، الإيمانُ لا يكون إلا بعلمٍ، لا يمكن لشخصٍ أن يؤمن إلا بعدَ أن يعلم ما هو الإيمان، فيكون هذا دليلًا للمرتبة الأولى.

المرتبة الأولى: ماذا قال الشيخ؟ العلم، ما الدليل عليها؟ السورة ما فيها ذكرُ العلمِ؟ تنبهتم لهذا؟ وإنما قال: ﴿إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا﴾ وجه الدلالة: أنه لا يكون إيمانٌ إلا وقد سبقه علمٌ، فيكون هذا دليلُ المرتبة الأولى: لأن الشيخ الآن يستدل للمراتب الأربعة كلها قال: ﴿إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ هذا دليل على مرتبة العمل، هنا الآن يرِدُ إشكال.

الإيمان، تعريفه عند أهل السنة والجماعة ما هو؟ اعتقادٌ بالقلبِ، وقولٌ باللسان، وعملٌ بالجوارحِ والأركان، قال: ﴿إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا﴾ يشمل هذه الأركان الثلاثةَ: الاعتقاد، والقول، والعمل.

ثم قال: ﴿وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ فقد يقول قائل: إن الواوَ تفيد المغايرةَ، فيكون العمل ليس من الإيمان كما يقول المُرجئة الذين يقولون: العمل شرطُ كمالٍ وليس ركنًا في الإيمان، فالجواب عن هذا أن يقال: إن العطفَ قد يكون من باب عطفِ الخاص على العام؛ لشرفِ ذلك الخاص أو مزيةً في ذلك الخاص، فهنا قول الله -عزَّ وجلَّ-: ﴿إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا﴾ هذا عام، يشمل الاعتقاد، والقول والعمل ﴿وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ هذا خاصٌّ عُطف على العام، وهذا له نظائر، يعني في القرآن، قال الله -عزَّ وجلَّ-: ﴿مَنْ كَانَ عَدُوًّا لِلهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَرُسُلِهِ وَجِبْرِيلَ وَمِيكَالَ﴾ [البقرة: ٩٨]، الملائكة يدخل فيهم جبريل وميكال أو لا؟ عليهم الصلاة والسلام، يدخلون، لكن عطَف، ذَكر جبريل وذكر ميكائيل عليهم الصلاة والسلام فهذا من باب عطف الخاص على العام؛ لمزية في ذلك الخاص.

قال: ﴿وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ﴾ يعني: أوصى بعضُهم بعضًا بالإيمان بالله -عزَّ وجلَّ- وتوحيده، وهذا دليل للمرتبة ماذا؟ الثالثة: ما هي؟ الدعوة إلى دين الله، التواصي في الدعوة.

﴿وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ﴾ هذا دليل المرتبة الرابعة، الصبر على طاعة الله -عزَّ وجلَّ- والصبر عن معصيته، والصبر على أقدار الله المؤلمة، هذه هي أركان الصبر، الصبر يكون عن معصية الله، ويكون على طاعة الله، ويكون على أقدار الله المؤلمة.

قال الشافعي -رحِمَه اللهُ- تعالى: وهو الإمام محمد بن إدريس الشافعي القرشيُّ الإمام المشهور المولود سنة مائةٍ وخمسين للهجرة، والمتوفَّى سنة مائتين وأربعة للهجرة، وهو أحد الأئمة الأربعة أصحاب المذاهب المتبوعة.

قال -رحِمَه اللهُ-: لو ما أنزل الله حجة على خلقِه إلا هذه السورة لكفَتهم يعني لو ما أنزل الله -عزَّ وجلَّ- من القرآن على النَّبي صلى الله عليه وسلم إلا هذه السورة لكفتهم في إقامة الحجة على الخلق في أنه يجب أن يُمتثل ما أمر الله -عزَّ وجلَّ- به، وأن يُترك ما نهى الله -جلَّ

وعلا- عنه؛ فهي كافية لهم في معرفة أنه لا نجاة لهم إلا بالإيمان والعمل الصالح والتَّواصي على الحق والتواصي على الصبر، يعني كافية لهم في إقامة الحجة عليهم في هذا، وليس المراد أن هذه السورة كافية عن بقية سور القرآن، ليس هذا مرادًا قطعًا بل كل آية من كتاب الله -عزَّ وجلَّ- العباد بحاجة إليها أمسَّ الحاجة؛ لأن كتاب الله -عزَّ وجلَّ- فيه الهدى والنور، لكن مرادَه -رحِمَه اللهُ- تعالى أنها تكفيهم في إقامة الحجة عليهم في أنهم لا بد أن يؤمنوا بالله، ولا بد أن يعملوا الصالحات، ولا بد أن يتواصَوا على الحقِّ وأن يتواصوا على الصبر، كافية لهم في هذا.

هذا النَّقل من الشيخ -رحِمَه اللهُ- عن الإمام الشافعي فيه فائدة أن الشيخ -رحِمَه اللهُ- متبعٌ لما عليه السلف الصالح، هذا كثير يأتي بكلامه النقول يعني ذكرت قبل قليل كثرة النقول من الكتاب والسنة، أدلة الكتاب والسنة، هذا مهم جدًّا للرد على المناوئين الذين يقولون جاءنا بمذهب جديد، نقول كتبه الآن مليئة بالكتاب والسنة، وبالاستدلال عليه.

أيضًا هو -رحِمَه اللهُ- تعالى ما يحتج بكلامه فقط، يحتجُّ بكلامه، ويبين الدلائل، ولكنه أيضًا يحتج بكلام السلف، فهذا نقل عن الإمام الشافعي، وسوف يعقبه نقل عن الإمام البخاري، ثم سيأتي أيضًا عن غيرهم من أئمة الإسلام.

قال: لو ما أنزل الله حجةً على خلقه إلا هذه السورة لكفتهم، ثم قال البخاري -رحِمَه اللهُ-: البخاري محمد بن إسماعيل بن إبراهيم بن المُغيرة البخاري، أبو عبد الله المولود ببُخَارى سنة ١٩٤ والمتوفى سنة ٢٥٦.

قال: -رحِمَه اللهُ- في كتابه الصحيح بابٌ، وهذه تُقرأ بالتنوين؛ لأنه مقطوعٌ عن الإضافة "بابٌ العلم قبل القول والعمل"، هكذا بوَّب البخاري في صحيحه، وترجم بهذه الترجمة؛ ليبين أنه يبدأ بالعلم قبل القول والعمل؛ وذلك لقول النبي صلى الله عليه وسلم: «مَنْ عَمِلَ عَملاً ليس عليهِ أمرُنا- يعني ليس على علم وليس على سنة النبي عليه الصلاة والسلام- فهُوَ ردٌّ» يعني مردود على صاحبه.

قال: والدليل قوله تعالى: ﴿فَاعْلَمْ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَاسْتَغْفِرْ لِذَنْبِكَ﴾ [محمد: ١٩]، فبدأ بالعلم قبل القول والعمل.

استدلَّ البخاري بهذه الآية على وجوب البدء بالعلم قبل القول والعمل؛ وذلك أن الله تعالى أمر نبيه صلى الله عليه وسلم أولًا بالعلم في قوله: ﴿فَاعْلَمْ﴾ والخطاب وإن كان لنبيه عليه الصلاة والسلام فهو يشمل أمتَه.

ثم أعقبه بالعملِ في قوله ﴿وَاسْتَغْفِرْ لِذَنْبِكَ﴾؛ فالاستغفار عملٌ من المعلوم أنه لا يبدأ إلا بالأهم، فالأهم؛ فيبدأ أولا بالعلم، ثم يعقبه بالعمل، هنا تنبيه، الذي في صحيح البخاري -رحِمَه اللهُ- قال: باب العلم قبل القول والعمل؛ لقول الله تعالى: ﴿فَاعْلَمْ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ﴾، فبدأ بالعلم الشيخ أضاف قوله فبدأ بالعلم قبل القول والعمل ربما هذا يكون من التَّوضيح من قِبل الشيخ أو أنه وقف على نسخة للبخاري فيها هذا الكلام لم نقفْ عليها.

اعلم -رحمك الله- أنه يجب على كل مسلم ومسلمة تعلُّم هذه الثلاث مسائل والعمل بهنَّ:

الأولى: أن الله خلقنا ورزقنا ولم يتركنا هَملاً بل أرسل إلينا رسولاً؛ فمن أطاعه دخل الجنة ومن عصاه دخل النار، والدليل قوله تعالى: ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَا إِلَيْكُمْ رَسُولًا شَاهِدًا عَلَيْكُمْ كَمَا أَرْسَلْنَا إِلَى فِرْعَوْنَ رَسُولًا * فَعَصَى فِرْعَوْنُ الرَّسُولَ فَأَخَذْنَاهُ أَخْذًا وَبِيلًا﴾ [المزمل: ١٥، ١٦].

الثانية: أن الله لا يرضى أن يُشرك معه أحدٌ في عبادته لا مَلكٌ مقرَّب ولا نبيٌّ مُرسل، والدليل قوله تعالى: ﴿وَأَنَّ الْمَسَاجِدَ لِلهِ فَلَا تَدْعُوا مَعَ اللهِ أَحَدًا﴾ [الجن: ١٨].

الثالثة: أن من أطاع الرسول، ووحَّد الله لا يجوز له موالاة من حادَّ الله ورسوله ولو كان أقرب قريب والدليل قوله تعالى: ﴿لَا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُوا آبَاءَهُمْ أَوْ أَبْنَاءَهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ أُولَئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الْإِيمَانَ وَأَيَّدَهُمْ بِرُوحٍ مِنْهُ وَيُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا رَضِيَ اللهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ أُولَئِكَ حِزْبُ اللهِ أَلَا إِنَّ حِزْبَ اللهِ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ [المجادلة: ٢٢].

أمَّا هذه الرسالة الثانية من الرسائل التي هي مُقدِّمات بين يدي رسالة ثلاثة الأصول، قال -رحِمَه اللهُ-: اعلم -رحمك الله- أنه يجب على كل مسلمٍ ومسلمة تعلم ثلاث هذه المسائل والعمل بهن، يعني: يجب على كل مُكلَّف من ذكرٍ وأنثى وجوبًا عينيًّا أن يتعلم هذه المسائل الثلاثة.

وكذا يُقال في المسائل الأربعة المُتقدمة، فيجب على كل مسلمٍ ومسلمة أن يتعلَّمها، تعلُّم هذه الثلاث مسائل إنما يكون بمعرفتها واعتقاد معانيها، ثم العمل بما دلَّت عليه، والشيخ -رحِمَه اللهُ- ذكر هذه الثلاث مسائل مُجملة، قال: تعلم هذه الثلاث مسائل، ثم ذكرَها مفصلة، فهذا أيضًا من أسلوب التشويق في العلم: أن يؤتَى بالكلام مجملًا، ثم يؤتى به مفصلًا. هذه الثلاث مسائل:

المسألة الأولى: في توحيد الربوبية.

والثانية: في توحيد الألوهية.

والثالثة: في الولاء والبرَاء.

قال: الأولى أن الله خلقنا ورزقَنا ولم يتركْنا هملًا، هذه الجملة من كلامه -رحِمَه اللهُ- تضمنت ثلاثة أمور.

الأمر الأول: أن الله خلقنا؛ يعني أوجَدنا من العدمِ بعد أن لم نكن شيئًا، والدليل على أن الله -عزَّ وجلَّ- خلقنا عدةُ آيات في كتاب الله -عزَّ وجلَّ- قال الله تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذاريات: ٥٦]، وأيضًا ذكر الله -عزَّ وجلَّ- دليلًا عقليًّا، قال الله سبحانه: ﴿أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ﴾ [الطور: ٣٥]، من المعلوم أن الإنسان لا يمكن أن يكون خالقًا لنفسه؛ لأنه قبل الخلق كان عدمًا، ولا يمكن أن يكون الإنسان خُلق من غير شيء، يعني من غير خالقٍ، هذا غير مُمكِن، فلم يبقَ إلا أنه وُجِد خالقٌ قد خلقه، وهو الله -سبحانه وتعالى- هذَا دليلٌ عقليٌّ مأخوذ من القرآن.

إذًا نقول دلَّ الدليل من القرآن على أن الله -عزَّ وجلَّ- هو الذي خلقنا بدليل السمع، وأيضًا بدليل العقل الذي ورد في هذه الآية، إذًا هذا الأمر الأول أن الله خلقنا.

الثاني: أن الله رزقَنا، والدليل على أن الله -عزَّ وجلَّ- هو الرازق قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللهَ هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ﴾ [الذاريات: ٥٨]، وقال -جلَّ وعلا-: ﴿قُلْ مَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ قُلِ اللهُ﴾ [سبأ: ٢٤]، والآيات في هذا كثيرة، وأيضًا جاء في السنة أن النبي صلى الله عليه وسلم ذهبَ لما ذكر الجنين قال: «يُبعثُ إليه المَلكُ فيُؤمرُ بأربع كلمات بكتبِ رزقِه وأجلِه وعمله وشقيٌّ أو سعيدٌ».

الأمر الثالث: في هذه الجملة أن الله تعالى لم يتركنا هملاً، والهمل بفتح الميم هو: السُّدى، يعني يقال: ترك سُدى، يعني تُرك هملًا، وهذا اللفظ، يعني قوله هملًا لم يرد في القرآن، وإنما الذي ورد لفظ السُّدى، ولفظ العَبث قال الله -عزَّ وجلَّ-: ﴿أَيَحْسَبُ الْإِنْسَانُ أَنْ يُتْرَكَ سُدًى﴾ [القيامة: ٣٦]، بمعنى هملًا لا يحاسَب ولا يعاقَب، وقال -جلَّ وعلا-: ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا﴾ [المؤمنون: ١١٥]؛ يعني لا تُحاسبون ولا تُبعثون، تعالى الله -عزَّ وجلَّ- عن ذلك علوًّا عظيما.

إذًا هذه الجملة اشتملتْ على ثلاثة أمور، وهي أن الله خلقَنا وأنه رزقنا وأنه لم يتركنا هملًا، قال بعد ذلك: بل أرسل إلينا رسولًا هو محمد عليه الصلاة والسلام، أرسله بالهدى ودين الحق؛ فمن أطاعه دخل الجنةَ ومن عصاه دخلَ النار؛ لأن طاعة النبيِّ عليه الصلاة والسلام من طاعة الله، ومن أطاع الرسول عليه الصلاة والسلام فقد أطاع الله، كما قال الله -عزَّ وجلَّ-: ﴿مَنْ يُطِعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللهَ﴾ [النساء: ٨٠]، وجاء في صحيح البخاري أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «كلُّ أمَّتي يدخلونَ الجنَّة إلا مَن أبَى قالوا: يا رسولَ الله، ومَنْ يأبَى؟ قال: مَنْ أطَاعَني دَخَلَ الجَنةَ ومَن عَصَاني فَقَد أَبَى»، إذًا من أطاع النبي عليه الصلاة والسلام دخل الجنة ومن عصاه عليه الصلاة والسلام دخل النار، قال: والدليل قوله تعالى: ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَا إِلَيْكُمْ رَسُولًا شَاهِدًا عَلَيْكُمْ كَمَا أَرْسَلْنَا إِلَى فِرْعَوْنَ رَسُولًا * فَعَصَى فِرْعَوْنُ الرَّسُولَ فَأَخَذْنَاهُ أَخْذًا وَبِيلًا﴾ [المزمل: ١٥، ١٦].

الدليل يعني على قول المؤلف -رحِمَه اللهُ-: بل أرسلَ إلينا رسولًا، الدليل على هذا هذه الآية التي ذكرها المؤلف -رحِمَه اللهُ- ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَا إِلَيْكُمْ رَسُولًا﴾، الخطاب لكفَّار قريش، والمراد: جميع من يخاطَب بهذه الآية من الثقلين، ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَا إِلَيْكُمْ رَسُولًا شَاهِدًا عَلَيْكُم﴾، يعني شاهدًا على أعمالكم كما قال الله تعالى: ﴿لِيَكُونَ الرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيْكُمْ وَتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ﴾.

قال: ﴿كَمَا أَرْسَلْنَا إِلَى فِرْعَوْنَ رَسُولًا﴾، من هو الرسول المرسل إلى فرعون؟ موسى عليه الصلاة والسلام ﴿فَعَصَى فِرْعَوْنُ الرَّسُولَ فَأَخَذْنَاهُ أَخْذًا وَبِيلًا﴾ يعني شديدًا، ففيه التحذير لكفار قريش أنكم إن عصيتم رسولكم فسيحل بكم كما حل بقوم موسى لما عصوا رسولهم فيعاقبون عقابًا شديدًا، وقوم موسى عليه السلام لما عصوا رسولهم عاقبهم الله -عزَّ وجلَّ- في الدنيا بالغرق فأغرقهم في البحر فلم ينجُ منهم أحد، وعاقبهم أيضًا في البرزخ.

فقال الله -عزَّ وجلَّ-: ﴿النَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ أَدْخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذَابِ﴾ [غافر: ٤٦] عقابٌ في الدنيا، وعقاب البرزخِ، وعقاب في الآخرة، نعوذ بالله من عقاب الله، فأنتم يا كفار قريش إن عصيتم محمدًا عليه الصلاة والسلام؛ فهم متوعَّدون بالعقوبة كما عُوقِب أتباعُ أو قومُ موسى عليه السلام، وهذا يكون لكل أحدٍ، يعني لكل أحد من الناس، كل من عصى نبيه فإنه متوعد بهذا الوعيد الشديد، أعاذنا الله -عزَّ وجلَّ- من عذابه وعقابه.

قال الثانية: أن الله لا يرضى أن يُشرك معه أحد في عبادته؛ لا مَلك مُقرَّب ولا نبيٌّ مُرسَل هذه المسألة الثانية كما تقدم في توحيد الألوهية، يعني توحيد العبادة، والمعنى: أن الله -جلَّ وعلا- يوجب على المكلَّفين أن يفرَد -سبحانه- بالعبادة، لأنه -جلَّ وعلا- هو المستحق لأن يُعبَد وحده دون ما سواه، فكما أنه -جلَّ وعلا- هو الخالق وحده، وهو الرازق وحده، وهو المالك وحده، وهو المدبِّر للأمر وحده، فينبغي أن يكون هو المعبودَ وحده دون ما سواه.

والشرك بالله -عزَّ وجلَّ- هو أعظم الظلم، كما قال الله تعالى في سورة لقمان ﴿يَا بُنَيَّ لَا تُشْرِكْ بِاللهِ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾ [لقمان: ١٣]، الشرك يوصفُ بأنه ظلم؛ لأنه صَرفٌ للعبادة

التي هي خالصُ حق الله -عزَّ وجلَّ- لمن لا يستحقها، وهو المخلوق، يعني من أخذَ الحق من مستحقِّه وأعطاه لغير من يستحقه يكون ظالمًا ولا لا؟ يعني في المال وغيره يكون ظالمًا، العبادةُ حقُّ مَن؟ حق الله -عزَّ وجلَّ- وحده دون ما سواه، فمن صرف هذه العبادة التي هي حق الله الخالص إلى المخلوق الذي لا يستحق أن يُعبد فنقول: أنت ظالم، بل أنت قد فعلت أعظم الظلم وأشد الظلم: ﴿إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾ قال الله -عزَّ وجلَّ-: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ﴾ يعني: لم يخلطوا إيمانهم بظلمٍ ﴿أُولَئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ وَهُمْ مُهْتَدُونَ﴾ [الأنعام: ٨٢]، ما المراد بالظلم بالآية؟ الشرك، كما فسره الله -عزَّ وجلَّ- في سورة لقمان، قال: والدليل قوله تعالى: ﴿وَأَنَّ الْمَسَاجِدَ لِلهِ فَلَا تَدْعُوا مَعَ اللهِ أَحَدًا﴾ [الجن: ١٨]، المساجد يفسرها العلماء بأحد التفسيرين.

التفسير الأول: أنها المواضع التي بُنِيت لعبادة الله -عزَّ وجلَّ- يعني المساجد المعروفة وبناءً على هذا يكون المعنى ﴿وَأَنَّ الْمَسَاجِدَ لِلهِ﴾، يعني هذه المساجد ما بُنيت إلا لله وحده، فلا تعبدوا فيها غيره.

والمعنى الثاني أو التفسير الثاني: أن المراد بالمساجد أنها الأعضاء التي يُسجَد عليها: الجبهة والأنف واليدان والركبتان وأطراف القدمين؛ الأعضاء السبعة التي يذكرها الفقهاء عند الكلام على ركن السجود في الصلاة، ﴿وَأَنَّ الْمَسَاجِدَ﴾ يعني: الأعضاء التي يُسجَد عليها، تسمَّى مساجدَ "لله"؛ يعني اسجُدوا لله بها ولا تسجدوا بها على هذه الأعضاء لغير الله -جلَّ وعلا- والمعنيان لا يتنافيان.

وقوله في الآية: ﴿وَأَنَّ الْمَسَاجِدَ لِلهِ فَلَا تَدْعُوا مَعَ اللهِ أَحَدًا﴾ تنبهوا لهذه الآية العظيمة فيها ثلاث عمومات مفيدة لدارس التوحيد ﴿فَلَا تَدْعُوا مَعَ اللهِ أَحَدًا﴾ كلمة ﴿أَحَدًا﴾ ما نوعها؟ معناها نكرة في سياق النهي ﴿فَلَا تَدْعُوا﴾ فتفيد العموم، عموم جميع من يُدعَى مع الله -عزَّ وجلَّ-، فيدخل في هذا العموم المَلك المقرَّب والنبي المرسَل والوليَّ الصالح، والشجر والحجر والجن، وغير ذلك، كل ما يُعبَد من دون الله -عزَّ وجلَّ- فإن العبد منهي عنه، يعني ما يُستثنى الأولياء والصالحون والأنبياء والملائكة ما يُستثنى أحد أبدًا؛ لوجود هذا العموم.

العموم الثاني: في قوله﴿تَدْعُوا﴾ فإنه يعم دعاء العبادة ودعاء المسألة، والعلماء يقسمون الدعاء إلى قسمين: دعاء عبادة، ودعاء مسألة.

أما دعاء العبادة: فهو كل عبادة تَتَعبَّد لله -عزَّ وجلَّ- بها؛ فإنها تُسمى دعاء عبادة: الصلاة دعاء عبادة، الزكاة دعاء عبادة، الصوم دعاء عبادة، النذر، الذبح، وغير ذلك، كل هذا داخل في دعاء العبادة كيف يكون دعاء؟ لماذا سمي دعاءً؟ لأن لسان حال هذا العابد المصلي أو الذابح أو الناذر أنه ماذا يريد بعبادته؟ رضا الله -عزَّ وجلَّ- ودخول جنته والنجاة من عذابه، فكأنه يقول: يا ربي أدخلني جنتك بهذا العمل، وأعذني من نارك. واضح؟ إذًا هذا دعاء عباده.

وأن دعاء المسألة: فهو الذي يتبادر إلى الذهن عند إطلاق كلمة الدعاء، يكون بالسؤال؛ كأن يقول الإنسان: اللهم اغفر لي، اللهم ارحمني، ونحو ذلك، إذًا قوله -جلَّ وعلا- ﴿فَلَا تَدْعُوا﴾ يشمل نوعي الدعاء، هذا عموم، ونعم كذلك داخل في دعاء العبادة، قراءة القرآن دعاءُ عبادة، التسبيح والتهليل دعاء عبادة، طيب هذا العموم ماذا؟

العموم الثاني أيضًا في قوله: ﴿فَلَا تَدْعُوا﴾ يعمُّ جميع الداعين، يعني جميع الخلق، فليس لأحد من الناس أيًّا كان أن يدعو غير الله تعالى، لا يُستثنى أحد، لا يقول شخص: أنا مثلًا وليٌّ من أولياء الله فلي أن أدعو غير الله، نقول لا، عموم فليس لأي مخلوق كائنًا مَن كان أن يدعو غير الله، فليظهر عندنا كم عمومًا الآن؟ ثلاث عمومات، العموم في قوله: ﴿أحدا﴾ لا مَلك مقرب ولا نبي مرسَل ولا غيره، لا يُدعى أحدٌ مع الله أبدًا.

والعموم الثاني: عموم الدعاء في قوله: ﴿فَلَا تَدْعُوا﴾ يشمل دعاء العبادة، ودعاء المسألة، هذه لا تصرف، لا يصرف أي نوع من أنواع الدعاء إلا لله وحده.

والعموم الثالث: في قوله ﴿تَدْعُوا﴾ الواو هنا فيها العموم لجميع الخلق، جميع المكلفين لا يدعون إلا الله سبحانه وتعالى.

نضيف عمومًا رابعًا: وهو في الشِّرك، أو هذا نتركه، فهذا يتعلق بالآية التي تأتي إن شاء الله إذًا نكتفي الآن بثلاث عمومات.

صرح بهذا التقسيم، تقسيم الدعاء إلى عبادة، وإلى مسألة.

صرح بهذا التقسيم شيخ الإسلام ابن تيمية -رحِمَه اللهُ- كما في الفتاوَى، وأيضًا صرح به العلَّامة ابن القيم -رحِمَه اللهُ- تعالى في "جلاء الأفهام"، وهذا التقسيم موجودٌ في ضمن كلام السلف، وقد دلت عليه دلالة الكتاب والسنة.

قال الثالثة: من أطاع الرسول ووحد الله لا يجوز له موالاة من حادَّ الله ورسوله ولو كان أقرب قريب، هذه المسألة الثالثة تتعلق بالولاء والبَراء، والمعنى: أن من أطاع الرسول عليه الصلاة والسلام باتباع أمره واجتناب ما نهى عنه، ووحَّد الله -عزَّ وجلَّ- في عبادته فإنه يجب عليه أن يُواليَ أهل الإيمان ويُعادي أهل الشرك والكفران، ولا يجوز له أن يواليَهم، والموالاة معناها الموادَّة والمحبة، وهي ضد المعاداة، فالموالاة معناها: أن تتخذ وليًّا، وأصلها من الوَلاية، والوَلاية هي المحبة، قال الله -عزَّ وجلَّ-: ﴿هُنَالِكَ الْوَلَايَةُ لِلهِ الْحَقِّ﴾ [الكهف: ٤٤]، يعني: هنالك المحبة والمودة والنُّصرة لله الحق، وأما المُحادة فهي المُجانبة؛ لأن الشيخ قال: ﴿مَنْ حَادَّ اللهَ وَرَسُولَهُ﴾ [المجادلة: ٢٢] ما معنى؟ المُحادة يُقال هي المُجانبة والمُخالفة هو المُعاداة يعني أن المؤمنين في حدٍّ وأعداء الله الكافرين في حدٍّ آخر.

لهذا قال الله -عزَّ وجلَّ-: عن النبي إبراهيم عليه الصلاة والسلام: ﴿قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ إِذْ قَالُوا لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَآءُ مِنْكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللهِ ..﴾ الآية [الممتحنة: ٤]، فهذا الدليل على البراءةِ من المشركين والكافرين .

والولاء والبراء من أوثق عُرى الإيمان يقول النبي صلى الله عليه وسلم: «أوثقُ عُرَى الإيمانِ: الحبُّ في اللهِ والبُغضُ في اللهِ» أن تحب المرء لا تحبه إلا لله؛ لأنه مطيع لله -عزَّ وجلَّ- تحب أهل التوحيد و أهل الصلاح وأهل الطاعة؛ لأنهم على توحيد الله وعلى سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم وتكره أهل الكفر والشرك والمعاصي، ولكن هذه المسألة فيها تفصيل: كراهة من خالف أمر الله -عزَّ وجلَّ- ومعاداته، من خالف أمر الله -عزَّ وجلَّ- قد تكون معاداة تامة ليس فيها موالاة أبدًا، وهي لأهل الكفر والشرك الخارجين من ملة الإسلام فهؤلاء لهم المعاداة التامة، ولا يجوز أن يكون في القلب لهم مودة أو محبة، أعني بذلك المحبة الدينية، وأما

من كانت معصيته دون الكفر والشرك كحال أهل الكبائر من أهل الإسلام، يعني معه أصل الإسلام، وعنده بعض الأعمال الصالحة، لكن يقع في كثير من المعاصي وهذا حال كثير منا، فهؤلاء يحبون بما معهم من أصل التوحيد والعمل الصالح، ويبغضون ويعادون بقدر ما معهم من المعاصي، يُحبُّ من وجهٍ ويبغضُ من وجهٍ.

ومحبتهم تقتضي أمرهم بالمعروف ونهيهم عن المنكر ودعوتهم إلى الخير، وأما مسألة الهجر فهي مسألة أخرى: الهجر للعاصي إن كان فيه نفع وأثر أن يعود ويتوب فإنه يهجر، وأما إذا لم يكن في الهجر منفعة فإنه لا يُهجر وإنما يتواصل معه بالنصح والتذكير.

قال -رحِمَه اللهُ-: ولو كان أقرب قريب لا يجوز لهم مولاة من حادَّ الله ورسوله ولو كان يعني هذا المحادَّ لله ورسوله، المعادي لله ورسوله، ولو كان أقربَ قريبٍ لك، لو كان أباك، لو كان ابنك، لو كان أخاك، لو كان ابن عمك، لو كان زوجتك أقرب الناس إليك، فإنه لا يجوز أن يوالَى، ولا يجوز أن يُحبَّ المحبة الدينية وإنما يكون في القلب له البغض والعداء، ثم ذكر الدليل على ذلك قوله تعالى: ﴿لَا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللهَ وَرَسُولَهُ ..﴾ الآية [المجادلة: ٢٢] قوله ﴿لَا تَجِدُ﴾ هذا نفي يراد به النَّهي وهو أبلغ من النهي، يعني أبلغ من النهي لو جاء صريحًا.

فمَن والى الكافرين فقد ترك واجبًا من واجباتِ الإيمان، لأن الله -عزَّ وجلَّ- قال: ﴿لَا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللهَ وَرَسُولَهُ﴾، لا يجتمع الإيمانُ والموالاةُ لأعداء الله -عزَّ وجلَّ- وإن كانَ الكلام على الموالاةِ فيه تفصيل، يعني يراجَع في مظانِّه؛ هل هذه الموالاة كفرية أو ليست بكفرية؟

يعني يطول فيها الكلام، لكني سأختصر الكلام في ذكر قسمين يذكرهما أهل العلم، وهما التولي والموالاة، العلماء يفرقون بين التولي والموالاة، يقولون: التولي هذا ردَّةٌ، إن حصل من مسلم، التولي ردةٌ وهو الذي جاء في قول الله -عزَّ وجلَّ-: ﴿وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ مِنْكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ﴾ [المائدة: ٥١]، لكن ما معنى التولي؟ معناها: محبة الشرك وأهل الشرك أو محبة الكفر وأهل الكفر، أو نصرة الكفار على أهل الإيمان قاصدًا ظهور الكفر على الإسلام.

ينصر أهل الكفر.. وأهل الشرك على أهل الإسلام، ماذا يقصد بهذه النصرة؟ يقصد بهذا أن يظهر الكفر على الإسلام، هذا كفرٌ.. وإن كان من مسلم فهو ردَّةٌ، وأما الموالاة المحرمة التي كبيرة من كبائر الذنوب لكن لا تصل إلى الكفر، فهي أن يحصلَ منه شيء من المحبة للمشركين أو للكافرين لأجل دنياهم، أو لأجل قرابتهم، فهذا محرم ولكن لا يصل إلى الكفر.

والدليل على أن الموالاة قد توجد من المؤمنِ قولُ الله -عزَّ وجلَّ-: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِمْ بِالْمَوَدَّةِ﴾ [الممتحنة: ١]، فأخبر -عزَّ وجلَّ- أن هؤلاءِ الذين يوادُّون أعداء الله -عزَّ وجلَّ- وصفهم بوصف الإيمان، قال: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِمْ بِالْمَوَدَّةِ﴾، فدلَّ هذا على أنه قد يوجد هذا من المؤمن، هذا يفيدنا في عدم تكفير من حصلت منه محبةُ كافرٍ لأجل أمر دنيويٍّ، أما محبته لأجل دينه هذه هي من القسم الأول لا يجوز للمؤمن أن يحبَّ الكفر وأن يحب الكفار لأجل كفرهم، هذا ردَّه عن دين الإسلام عياذًا بالله، ومما يدل على هذا القسم الثاني: ما حصل من حاطب بن أبي بلتعة رضي الله عنه لما كتب لكفار قريش يخبرهم بمسير رسول الله صلى الله عليه وسلم إليه، فلما جاء الوحي إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم، وأُتِي بحاطب رضي الله عليه وسأله قال: ما حملك على ذلك؟ فأخبره أن الذي حمله على ذلك أمرٌ دنيوي: حمايةَ أهله وماله في مكة فلم يكفِّره النبي عليه الصلاة والسلام، فدلَّ هذا على أن ما يحصل من مثل هذا من الإعانة ونحوها أنه لا بد فيها من الاستفصال.

فإن كان فعل ذلك محبةً للكفر ورغبةً في ظهور الكفر على الإسلام فهذا ردَّةٌ وإن فعل ذلك لأمر دنيوي فإن هذا ليس بردَّةٍ وإن كان كبيرةً من كبائر الذنوب.

قال -رحِمَه اللهُ-: أعظم ما أمر الله به التوحيد وهو إفراد الله بالعبادة، وأعظم ما نهى عنه الشرك وهو دعوة غيره معه، وهذا واضح مما تقدم أن التوحيد هو أعظم المأموراتِ، وأن الشرك هو أعظم المنهيات.

ولكن هنا الشيخ -رحمه الله- فسر لنا التوحيد قال: إفراد الله بالعبادة، وفسر لنا الشرك وقال: وهو دعوة غيره معه ويأتي إن شاء الله تعالى مزيد بيان لهذا، قال: والدليل قوله تعالى:

﴿وَاعْبُدُوا اللهَ وَلاَ تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا﴾ ﴿وَاعْبُدُوا اللهَ﴾ هذا أمرٌ بعبادة الله -عزَّ وجلَّ- وحده: ﴿وَلاَ تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا﴾ يقال: هنا أيضًا عندنا أكثر من عموم.

العموم الأول: في قوله ﴿شيئًا﴾ فهذه نكره في سياق ماذا؟ في سياق النهي: ولا تشركوا، ينهى -جلَّ وعلا- عن الشرك ﴿شيئًا﴾ نكرة في سياق النهي فتفيد ماذا؟ العموم، فتعم كل شيء يشرك به مع الله، كما تقدم في قوله ﴿فلا تدعو مع الله أحدا﴾ لا ملَك مقرَّب ولا نبي مرسل ولا جنٌّ ولا حَجر إلى آخره.

وقولُه ﴿لا تُشركوا﴾ هذا أيضًا فيه عموم من جهة أن الفعل المضارع عندنا فيه زمان وفيه مصدر، والمصدر إشراك، وهذا المصدر نكرة، والنَّكرة في سياق النهي تُفيد ماذا؟ العموم؛ فيعم أنواع الشرك كلها فيدخل في ذلك الشرك الأكبر والشرك الأصغر، والشرك الجلي والشرك الخفي، كل هذا داخل في قوله: ﴿لا تُشركوا﴾.

وبهذا تنتهي الرسالة الثانية سيذكر بعدها الرسالة الثالثة من المقدمات.

اعلم -أرشدك الله- لطاعته أن الحنيفية ملَّة إبراهيم أنْ تَعبدَ الله وحده مخلصًا له الدين، وبذلك أمر الله جميع الناس وخلقهم لها، كما قال تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونَ﴾، ومعنى يعبدون: يوحِّدون، وأعظم ما أمر الله به: التوحيد وهو إفراد الله بالعبادة، وأعظم ما نهى عنه: الشرك، وهو دعوة غيره معه.

والدليل قوله تعالى: ﴿وَاعْبُدُوا اللهَ وَلاَ تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا﴾ بدأ المؤلف -رحِمَه اللهُ- هذه الرسالة كعادته بالدعاء، قال: اعلم -أرشدك الله- لطاعته، والرشد: هو الاستقامة على طريق الحق، فمعنى أرشدك الله لطاعته أي وفقك وهداك، والحنيفية: هي ملة إبراهيم عليه الصلاة والسلام، يعني هي دين إبراهيم وشريعة إبراهيم، وأيضًا هي شريعة الأنبياء عليهم الصلاة والسلام، وهي عبادة الله -جلَّ وعلا- بالإخلاص وترك عبادة ما سواه، قال الله تعالى: ﴿إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِلهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ [النحل: ١٢٠].

وقال الله -عزَّ وجلَّ-: ﴿ثُمَّ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ أَنِ اتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا﴾ [النحل: ١٢٣]، وكما ذكرت قبل قليل أنه سُمي حنيفًا ونُسبت الحنيفية إليه؛ لأنه قام بها أعظم مما قام به مَن قبله، يعني

من الأنبياء عليهم الصلاة والسلام، فكان له فيها كمال الإخلاص، وكان عنده من الميل عن الشرك ما لم يكن لمن قبله، يعني قام بها قيامًا عظيمًا، والحنيف مُشتق من الحَنَفَ وهو الميل، فالحنيف والمائل عن الشرك قصدًا إلى التوحيد، وقيل: الحنيف: المُقبل على الله المُعرِض عن كل ما سواه، والمعنيان لا يتعارضان.

قال: أن تعبد الله مُخلصًا له الدين، العبادة في اللغة بمعنى التذلُّل والخضوع، يقال طريقٌ معبَّد أي مذلَّل وعرَّفها شيخ الإسلام ابن تيمية -رحِمَه اللهُ- يعني في الشرع بقوله: اسمٌ جامعٌ لكل ما يحبه الله ويرضاه من الأقوال والأعمال الظاهرة والباطنة.

هذا التعريف مهم جدًّا سنحتاجه بعد قليل في الأصل الأول كثيرًا عند الاستدلال لأنواع العبادة. اسم جامعٌ لكل ما يحبه الله ويرضاه من الأقوال والأعمال الظاهرة والباطنة.

قال: مخلصًا له الدين، الإخلاص مأخوذٌ من الخُلوص وهو الصفاء والسلامة من أي شائبة، ويكون المعنى: أن تعبد الله عبادة خالصة له وحده، لا تجعلوا له أو لا تجعلوا شيئًا منها لغيره.

قال: وبذلك أمر الله جميع الناس وخلقهم لها بذلك، الإشارة هنا إلى العبادة الخالصة يعني في قوله: أن تعبدَ الله وحدَه مخلصًا له الدين، بذلك أمر الله جميع الناس، وذلك لقول الله تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَه إِلَا أَنَا فَاعْبُدُونَ﴾ [الأنبياء: ٢٥]، قالوا: وَخَلَقَهُمْ لَهَا؛ لأن الله -عزَّ وجلَّ- خلق جميع الخلق لأجل عبادته وحده دون ما سواه، قال: والدليل على ذلك قوله تعالى: ﴿وَمَا خَلقتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونَ﴾ [الذاريات: ٥٦]، هذا فيه الحكمة من خلق الثقلين: الجن والإنس، وهو عبادة الله -عزَّ وجلَّ- وحدَه دون ما سواه.

واللام في قوله: ﴿ليعبدون﴾ هذه لام التعليل قال: ومعنى يعبدون يوحِّدون، من أين أخذ الشيخ -رحِمَه اللهُ- معنى الآية؟ يعني قوله يعبدون. ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ ما معنى يعبدون؟ يقول الشيخ: يوحدون. مِن أين أتى به؟ هذا الأثر فيه عن ابن عباس رضي الله عنه كما ذكر المفسرون.

يقول: ابن عباس -رضي الله عنهما- كل موضع في القرآن اعبدوا الله، فمعناه: وحدوا الله، أريدك دائمًا أن تستحضرَ هذا المعنى، أن الشيخ مُتَّبعٌ في تفسير الآية نقل تفسير ابن عباس، فمن يعترض على الشيخ نقول: اعتراضك هذا ينسحب وينجرُّ على السلف، تعترض على ابن عباس، التفسير هنا وغيرهما مما ذكره الشيخ رحِمَه اللهُ.

قال: وَأَعْظَمُ مَا أَمَرَ اللهُ بِهِ التَّوْحِيدُ وَهُوَ إِفْرَادُ اللهِ بِالْعِبَادة، إنما كان التوحيد هو أعظم ما أمر الله به؛ لأن التوحيد تُكفَّر به الذنوب، وتُستوجب به الجنة، وينجو به العبد من النار، ولأن التوحيد هو الأصل الذي يُبنى عليه غيره من العمل؛ لهذا كله صار التوحيد هو أعظم ما أمر الله -جلَّ وعلا- به، التوحيد في اللغة مصدر وحَّد يوحِّد، يعني جعل الشيء واحدًا، وفي الشرع عرفه المؤلف -رحِمَه اللهُ تعالى- بقوله: وهو إفراد الله بالعبادة، مراده بهذا التعريف التوحيد الذي بُعِثت الرسل عليهم الصلاة والسلام لتحقيقه، وهذا هو النوع الذي حصلت فيه الخصومة بين الأنبياء عليهم السلام وأتباعهم، لكن التعريف الأعمَّ للتوحيد أن يُقال: هو إفراد الله تعالى بما يختص به.

وهذا يشمل ما يختص به في ربوبيته، وفي ألوهيته، وفي أسمائه وصفاته، لكن الشيخ -رحِمَه اللهُ- اقتصر على تعريف التوحيد بتعريف الألوهية؛ لأنه هو التوحيد الأعظم، وذلك أن الخلق جميعهم إلا ما نذر يُقرون بربوبية الله -عزَّ وجلَّ- وإنما الخصومة في توحيد العبادة في القديم والحديث، الخصومة العظيمة في توحيد العبادة والذي حصل فيه المخالفة.

إذًا نخلص من هذا أن التوحيد على ثلاثة أقسام: توحيد الربوبية، وهو إفراد الله -عزَّ وجلَّ- بالخَلق والملك والتدبير، وبعضهم يقول: إفراد الله تعالى بأفعاله.

وتوحيد الألوهية: عرَّفه المؤلف إفراد الله بالعبادة.

وتوحيد الأسماء والصفات: إفرادُ الله -عزَّ وجلَّ- بما يختصُّ به من الأسماء والصفات من غير تحريفٍ ولا تعطيلٍ ومن غير تكييفٍ ولا تمثيل.

قال: وَأَعْظَمُ مَا نَهَى اللهُ عَنْهُ الشِّرْكِ، وَهُوَ دَعْوَةُ غَيْرِهِ مَعَهِ، إنما كان الشرك هو أعظم ما يُنهى عنه لما تقدم من أنه أظلم الظلم وهو هضم للربوبية، وتنقُّص للألوهية، وسوء ظن برب

العالمين، وهو أقبح المعاصي؛ لأنه تسوية للمخلوق الناقص من وجوه كثيرة بالخالق -جلَّ وعلا- الكامل.

مما يدل على أن الشرك أعظم الذنوب: حديث ابن مسعود رضي الله عنه في الصحيحين أن النبي صلى الله عليه وسلم لما قال له ابن مسعود رضي الله عنه: «أي الذنب أعظم؟ قال: أن تجعل لله ندًّا وهو خلقك».

ندًّا يعني مثيلًا ونظيرًا وشريكًا قال: وهو خلقك، وتلحظ هنا الاستدلال بما يقرُّ به المخالفون في التوحيد على ما ينكرونه، هذا كثير، يعني يأتي معنا -إن شاء الله تعالى يعني- استدلال له هنا، قال: أن تجعل الله ندًّا وهو خلقك، الخلق هل أحد ينكره؟ ما أحد ينكره؟ حتى كفار قريش يقرُّون بالخلق لأن الله -عزَّ وجلَّ- هو الخالق وهو الرازق وهو المحيي والمميت، قالوا: ما يُعرف أنه أنكر أن الله هو الخالق إلا فرعون، ماذا قال؟ ﴿أنا رَبُّكُمُ الْأَعَلى﴾ [النازعات: ٢٤]، ﴿ما عَلِمْتُ لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرِي﴾ [القصص: ٣٨]، لكنه أنكر ذلك علوًّا واستكبارًا، وإلا في قرارة نفسه يعلم أنه ليس ربًّا.

لهذا قال الله -عزَّ وجلَّ-: ﴿وَجَحَدُوا بِهَا وَاستيقَنَتْهَا أَنْفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا﴾ [النمل: ١٤]، فالمقصود من هذا أن غالب الخلق وكفار قريش -على وجه الخصوص- يقرُّون بأن الله هو الخالق فيحتج عليهم بهذا إذا كان هو الخالق فهو المستحق للعبادة وحده دون ما سواه.

الشرك عرَّفه الشيخ -رحِمَه اللهُ- بقوله: دعوة غيره معه، وتستحضر أن الدعوة هنا يعني الدعاء يشمل دعاء العبادة ودعاء المسألة، فكل عبادة صرفها لغير الله -عزَّ وجلَّ- فهو شرك في الألوهية، الشرك ينقسم إلى قسمين: شركٌ أكبر، وشرك أصغر.

الشرك الأكبر: هو ما تقدم، الذي يكون فيه صرف العبادة لغير الله عزَّ وجلَّ.

وأما الشرك الأصغر: فعُرِّف بأكثر من تعريفٍ. قال بعضهم: كلُّ عمل أو قول أو فعل أطلق عليه في نصوص الكتاب والسنة وصف الشرك، لكنه لا يُخرج من الملة، يعني ما أطلق عليه في النصوص أنه شرك لكن لا يخرج من الملة، فهذا يكون شركًا أصغر.

وبعضهم عرَّفه بأنه ما أُطلق عليه في النصوص لفظ الشرك وكان زريعةً ووسيلة إلى الشرك الأكبر ومن أمثلته: الحلف بغير الله -عزَّ وجلَّ-، وقول: ما شاء الله وشئت، ويسير الرياء، والتبرَّك بالمواضع، والتمسُّح بالأولياء والصالحين، هذا الأصل فيه أن يكون شركًا أصغر، ولكنه قد يصل إلى الأكبر، يعني في الحلف بغير الله، نقول الأصل أنه شرك أصغر، من حلف بغير الله فقد كفَر أو أشرك، ولكن إذا قال: إنني أعتقد بحلفي بهذا المخلوق أنه مساوٍ في التعظيم لله -عزَّ وجلَّ- أو أعظم من الله -جلَّ وعلا- يكون الحلف حينئذ شركًا أكبر.

التمسُّح بالمواضع بأحجار معينة أو كما يفعل بعضهم: يأتي إلى مقام إبراهيم عليه السلام ويتمسح به، أو إذا رأى رجلًا صالحًا يأتي ويسلِّم عليه، ما مقصوده من السلام؟ أن يمسَّ بدنه؛ ولهذا إذا سلم عليه يمسح في بدنه، هذا من التبرُّك، هذا التبرُّك في الأصل أنه شرك أصغر، لكن لو اعتقد أن البركة تحصل من هذا المخلوق استقلالًا من غير أن يكون لله -عزَّ وجلَّ- فيها شيء ولا تقديرٌ فيكون حينئذ من التبرُّك الذي يصل به إلى الشرك الأكبر، عياذًا بالله، وهذا مع الأسف موجود.

المزح. هل المزح بالشرك يصلح هذا؟ لا يصلح هذا، ولا ينبغي هذا، هذا فيه تهوين حقيقة لو قال: نتبرك بعلمك لو كان عنده علم، نتبرك بدعائك كرجل صالح، أما التمسح به هذا لا يجوز وإن كان مزحًا، هذه الأمور لا يليق حقيقة، ولا ينبغي أن تُفعل؛ لأن فيه تهوين لهذه الأمور العظام، هذه أمور ينبغي النُّفرةُ منها.

بقي عندنا الدليل ذكره الشيخ -رحِمَه اللهُ- قال: والدليل قوله تعالى ﴿وعبدوا الله ولا تشركوا به شيئا﴾ تقدم الكلام عليه قبل قليل نقف على هذا ونكمل إن شاء الله تعالى بعد الصلاة الله أعلم صلى الله عليه وسلم..

***

بسم الله الرحمن الرحيم الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على أشرف الأنبياء والمرسلين نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين، اللهم اغفر لنا ولشيخنا والمسلمين.

قال الإمام المجدد -رحمه الله تعالى-: فإذا قيل لك: ما الأصول الثلاثة التي يجب على الإنسان معرفتها؟ فقل: معرفة العبد ربه، ودينه، ونبيه محمدًا صلى الله عليه وسلم، فإذا قِيل لك: مَن ربُّك؟ فقل ربي الله الذي رباني وربَّى جميع العالمين بنعمته، وهو معبودي ليس لي معبودٌ سواه، والدليل قوله تعالى: ﴿الْحَمْدُ لِلهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [الفاتحة: ٢]، وكل مَن سوى الله عالَم وأنا واحدٌ من ذلك العالم.

فإذا قِيل لك: بم عرفت ربك؟ فقل بآياته ومخلوقاته: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ﴾ [فصلت: ٣٧]، ومن مخلوقاته السماوات السبع والأرضون السبع ومن فيهن وما بينهما والدليل قوله تعالى: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ لَا تَسْجُدُوا لِلشَّمْسِ وَلَا لِلْقَمَرِ وَاسْجُدُوا لِلهِ الَّذِي خَلَقَهُنَّ إِنْ كُنْتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ﴾ [فصلت: ٣٧]، وقوله تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ اللهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهَارَ يَطْلُبُهُ حَثِيثًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومَ مُسَخَّرَاتٍ بِأَمْرِهِ أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ تَبَارَكَ اللهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾ [الأعراف: ٥٤].

الحمد لله رب العالمين، وصلى الله وسلم وباركَ على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين، أما بعد.

من هنا بدأ الشيخ -رحمه الله- رسالة ثلاثة الأصول، من قوله: فإذا قيل لك: ما الأصول الثلاثة التي يجب على الإنسان معرفتُها؟ فقل: معرفة العبد ربَّه، ودينَه، ونبيَّه محمدًا صلى الله عليه وسلم، وكما أشرتُ إليه سابقًا أن الشيخ -رحمه الله- جاء بها مجملةً، ثم سيأتي بها مفصلة وهذا أوقع في النفس، وأدعى للتشويق.

وهذه الأصول الثلاثة التي ذكر الشيخ -رحمه الله- التي يُسأل عنها العبد في قبره فيسأله الملَكان: مَن ربُّك؟ وما دينُك؟ ومَن نبيُّك؟ وحينئذٍ ﴿يُثَبِّتُ اللهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ﴾ [إبراهيم: ٢٧]، فمن عرف التوحيد ونشأ عليه ومات عليه أجاب بالجواب الصحيح، ومن لم يعرف التوحيد حقَّ المعرفة ولم يعرف نبيَّه صلى الله عليه وسلم ولا دينَه فإنه يقول كما في الحديث: «هَاهْ هَاهْ!! لا أدْرِي» فهذا يدلك على أهمية هذه الأصول الثلاثة والعناية بها.

قال: فإذا قيل لك: من ربك؟ يعني مَن خالقك؟ ومَن معبودك؟ فقُل: ربي الله الذي رباني؛ أي ربي الله الذي خلقني وأوجدني من العَدم، ورباني بالنِّعم، قال: وربَّى جميع العالمين بنعمه؛ يعني خَلق جميع الخلق وأوجدهم من العدم ورباهم بالنعم. في بعض النسخ "بنعمته"، والمعنى واحد؛ لأن النعمة مفردة فأضيفت إلى الضمير، والمفرد إذا أضيف يفيد العموم، فالمعنى واحد بنعمته، أو بنعمه.

قال: وهو معبودي ليس لي معبود سواه، هذا مدلول كلمة التوحيد: لا إله إلا الله، إذا تأملت قال: وهو معبودي ليس لي معبود سواه، معبودي هذا فيه إثبات: إثبات العبادة لله -عزَّ وجلَّ- وليس لي معبود سواه، هذا فيه النفي كما سيأتي هذا معنى: لا إله؛ يعني لا معبود بحق إلا الله.

ابتدأ المؤلف -رحمه الله- بهذا الأصل وهو معرفة العبد ربه؛ لأن الذين خاطبهم الشيخ -رحمه الله- في زمانه كانوا يُقرُّون بتوحيد الربوبية فاستدلَّ بتوحيد الربوبية على توحيد الألوهية، يعني: إذا كنتم تُقِرُّون بأن الله -عزَّ وجلَّ- هو الرَّب وحده، فليكن هو المعبود وحده، قال: والدليل قوله تعالى: ﴿الْحَمْدُ لِلهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [الفاتحة: ٢]، الشاهد منه قوله: ﴿رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ يعني: رب جميع الخلق؛ فكل ما سوى الله -جلَّ وعَلا- داخلٌ في قوله: ﴿الْعَالَمِينَ﴾.

ودلَّت الآيةُ أيضًا على أن الله تعالى هو المعبود. ما وجه الدلالة؟ انتبهوا لهذا، ما وجه الدلالة من الآية في قوله تعالى: ﴿الْحَمْدُ لِلهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾؟ تدل على أن الله -عزَّ وجلَّ- هو المعبود، معَنا، ما ذُكر إلا الرب، يقال في هذا: إن لفظ الربِّ إذا أُفرد دخل فيه المعبود، لفظ "الربِّ" هذه فالقاعدة: لفظُ الربِّ إذا أُفرد دخل فيه المعبود، فيكون المعنى أنه ربُّ العالمين وخالقهم ومعبودهم أيضًا وحده دون ما سواه.

قال: وكل ما سوى الله عالم وأنا واحد من ذلك العالم، فالوجود ينقسم إلى قسمين: ربٌّ، ومربوب يعني مخلوق، والعوالم كثيرة؛ منها؛ عالم الملائكة، وعالم الإنس، وعالم الجن، وعالم الحيوان، وغير ذلك من العوالم، وأنت أيها الإنسان واحدٌ من ذلك العالم، والله -عزَّ

وجلَّ- ربُّ هذه العوالم كلها، فإذا قيل لك: بم عرفتَ ربك؟ يعني: ما الدليل على معرفة ربك؟ فقل: بآياته ومخلوقاته، الآيات هي الدلائل والعلامات الدالَّة على وحدانية الله عزَّ وجلَّ.

وكذا جميعُ المخلوقات دالَّة على وحدانية الله -عزَّ وجلَّ- بل كل فردٍ من أفراد مخلوقاته وإن دقَّ فهو دالٌّ على وحدانية الله -عزَّ وجلَّ- قال: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ﴾ [فصلت: ٣٧]؛ أي من آيات الله الكونية التي تشاهَدُ بالأبصار والتي تدل على وحدانية الله -عزَّ وجلَّ- ﴿اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ﴾، فكونُ الليل يأتي بظلامه ويعم الأرض ثم يعقبه النهار ويعم بنوره الأرض، ويتعاقبان على وجه الانتظام الدقيق لا يختلفان أبدًا، هذا يدل على وجود خالق، وهذا آية من آيات الله -عزَّ وجلَّ- الدالة على وحدانيته.

أيضًا من الآيات الدالة على وحدانيته -جلَّ وعَلا-: ﴿الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ﴾، يجريانِ بجريانٍ دقيقٍ وبانضباطٍ تامٍّ؛ تطلع الشمس في وقتٍ محدَّد، وتغرب في وقت محددٍ، وكذلك القمر، مَن تفكر في هذه الآيات عرف أنه لا بد لها من موجِد وهو الله جلَّ وعَلا.

قال: ومن مخلوقاته السماوات السبع والأرضون السبع وما فيهنَّ وما بينهما.

يعني: من أعظم مخلوقاته السماوات السبع وما فيها من بديع صنع الله -عزَّ وجلَّ- ففيها الكواكب السيارة والنجوم الزاهرة، وكذا الأرضون السبع وما فيها من الحيوانات والبحار والجبال والآدميين وغير ذلك، من تفكَّر فيها وتأمل؛ عرف أنها دالة على وحدانية الله عزَّ وجلَّ.

يُحكَى عن أبي حنيفة -رحمه الله- وحُكي عن غيره أن قومًا من أهل الكلام أرادوا البحث معه في ربوبية الله -عزَّ وجلَّ- يعني ينكرون أن الله -عزَّ وجلَّ- هو الربُّ، فقال: قبل أن نتكلمَ في هذا: أخبروني عن سفينةٍ في دِجلة -النهر الذي في العراق- تذهب فتمتلئ من الطعام والمتاع وغيره بنفسها، وتعود بنفسها؛ أي تذهب إلى الجانب أو شاطئ النهر؛ جهته الأولى، ثم ترجع إلى الجهة الثانية، وهذا منها؛ من غير أن يكون لها ربَّان يقودُها، قالوا: هذا ما يمكن! كيف سفينة تذهب وتحمل البضائع ثم ترجع، ويتكرر هذا منها كل يوم مرارًا؟! قالوا: هذا ما يمكن أن يحصل، قال: إذًا هذا الكون بما فيه من الشمس والقمر والليل والنهار، يتعاقَب الليل والنهار كلَّ يومٍ بهذه الدقة وهذا الانضباط، يقول: فلما قال لهم ذلك -يعني أقام عليهم الحجة- فآمنوا

بربوبية الله -عزَّ وجلَّ- فهذا مثال من الأمثلة الدالَّة على أن الله -عزَّ وجلَّ- هو الخالق وهو الرازق وهو الربُّ سبحانه وتعالى.

وهذا كله -كما تقدم- يُحتجُّ به عليهم بأنه -جلَّ وعَلا- هو المعبود، قال: والدليل قوله تعالى: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ لَا تَسْجُدُوا لِلشَّمْسِ وَلَا لِلْقَمَرِ وَاسْجُدُوا لِلهِ الَّذِي خَلَقَهُنَّ إِنْ كُنْتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ﴾ [فصلت: ٣٧]، هذا الدليل على أن الليل والنهار والشمس والقمر من آيات الله -عزَّ وجلَّ- الدالِّةِ على وحدانيته.

تضمنت هذه الآية أيضًا النهيَ عن عبادة غير الله -عزَّ وجلَّ- وذلك في قوله: ﴿لَا تَسْجُدُوا لِلشَّمْسِ وَلَا لِلْقَمَرِ﴾، ثم جاء الأمر بعبادة الله وحده في قوله: ﴿وَاسْجُدُوا لِلهِ الَّذِي خَلَقَهُنَّ﴾ .

احتجَّ الشيخ أيضًا بآية أخرى وهي قوله تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ اللهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ﴾ [الأعراف: ٥٤]، الآية هذا الدليل على أن السماوات والأرضين من مخلوقات الله -عزَّ وجلَّ- الدَّالة على وحدانيته، فالله -عزَّ وجلَّ- تعرَّف إلينا بأعظم مخلوقاته وهي السماوات والأرض.

قال: ﴿ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ﴾، استوى يعني: علَا واستقر على العرش عُلوًّا يليق بجلاله وعظمته لا يماثل علو المخلوقين: ﴿يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهَارَ يَطْلُبُهُ حَثِيثًا﴾، يعني سريعًا.

﴿وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومَ مُسَخَّرَاتٍ﴾، يعني مُذلَّلات بأمره: ﴿أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ تَبَارَكَ اللهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾ [الأعراف: ٥٤]، فكما أنه -جلَّ وعَلا- هو المُتفرِّد بالخلق فهو -جلَّ وعَلا- المُتفرِّد بالأمر سبحانه وبحمده.

ولهذا قال الشيخُ: والربُّ هو المعبود، يعني من معاني الرب، ومما يطلق على الرب: المعبود، كما أن الربَّ يُطلق على الخالق الرازق المالك المتصرفِ الذي ربَّى جميع العالمين بنعمِه. معنى المعبود يعني: المستحق أن يُعبَد وحده دون ما سواه. قال: والدليل قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ﴾ [البقرة: ٢١]، هذا دليل على قوله، والرب هو المعبود. لو قال له قائل: ما الدليل على هذا؟ قال الآية: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ﴾، هذه الآية هي أول نداءٍ في القرآن الكريم يمرُّ بك، إذا بدأت قراءة القرآن: سورة الفاتحة، ثم سورة البقرة، أول نداء يمرُّ

بك: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ﴾، معنى ﴿اعْبُدُوا رَبَّكُمُ﴾ يعني: وحِّدوا ربَّكم، كما ذكر ذلك أهلُ التفسير.

قال البغوي في تفسير الآية: ﴿اعْبُدُوا﴾ وحِّدوا، قال ابن عباس رضي الله عنهما: كل ما ورد في القرآن من العبادة فمعناه التوحيد، وهذا تقدم فيه الشرح: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ﴾، تلحظ هنا أن النداء للناس وليس للمؤمنين، ما قال يأيها الذين آمنوا.

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ﴾؛ لأن الخطاب لجميع الناس وجميع الناس كما تقدم يقرُّون بأن الله -عزَّ وجلَّ- هو الخالق؛ ولهذا قال في الآية: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ﴾؛ لأنهم يقرون بأن هو الخالق، كيف يكون هو المعبود وحده دون ما سواه؟

قال: ﴿الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ فِرَاشًا وَالسَّمَاءَ بِنَاءً وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَكُمْ﴾ [البقرة: ٢٢]، لاحظ كل هذه من أفراد ربوبية الله -عزَّ وجلَّ- هو المنْفرد بها، وهم يقرُّون بذلك، فهذا احتجاج عليهم بالربوبية على الألوهية.

قال: ﴿فَلَا تَجْعَلُوا لِلهِ أَنْدَادًا﴾، الأنداد جمع ندٍّ وهو المثيل والنظير والشبيه، يعني: لا تجعلوا لله نُظَراءَ وأمثالًا في العبادة وأنتم تعلمون أنه سبحانه وتعالى هو المُنْفردُ بالعبادةِ هو المستحقُّ لأنْ يُعبد دون ما سواه.

قال ابن كثير -رحمه الله- تعالى: الخالقُ لهذه الأشياء هو المستحق للعبادة، هذا كما تقدم كلام الحافظ ابن كثير -رحمه الله- يؤكد ما ذكره الشيخ، وكلام ابن كثير هذا جاء بالمعنى في تفسير الآية من تفسيره، وجاء أيضًا بالمعنى في كتاب "البداية والنهاية"، والشيخ -رحمه الله- لعله نقل كلامه بالمعنى لكنه موجود في تفسيره بالمعنى أو قريب من النصِّ، لكنَّ المعنى هذا ظاهرٌ موجود في تفسير الآية وأيضًا في "البداية والنهاية".

والربُّ هو المعبود، والدليل قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ * الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ فِرَاشًا وَالسَّمَاءَ بِنَاءً وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَكُمْ فَلَا تَجْعَلُوا لِلهِ أَنْدَادًا وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ٢١، ٢٢].

قال ابن كثير -رحمه الله تعالى-: الخالق لهذه الأشياء هو المستحقُّ للعبادة، وأنواع العبادة التي أمر الله بها، مثل: الإسلام والإيمان والإحسان، ومنه: الدعاء والخوف والرجاء والتوكُّل والرغبة والرهبة والخشوع والخَشية والإنابة والاستعانة والاستعاذة والاستغاثة والذَّبح والنَّذر، وغير ذلك من أنواع العبادة التي أمر الله بها، كلها لله تعالى، والدليل قوله تعالى: ﴿وَأَنَّ الْمَسَاجِدَ لِلهِ فَلَا تَدْعُوا مَعَ اللهِ أَحَدًا﴾ [الجن: ١٨]، فمن صرَف منها شيئًا لغير الله فهو مشركٌ كافرٌ، والدليل قوله تعالى: ﴿وَمَنْ يَدْعُ مَعَ اللهِ إِلَهًا آخَرَ لَا بُرْهَانَ لَهُ بِهِ فَإِنَّمَا حِسَابُهُ عِنْدَ رَبِّهِ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الْكَافِرُونَ﴾ [المؤمنون: ١١٧]، وفي الحديث: «الدعاءُ مخُّ العبادةِ» والدليل قوله تعالى: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ﴾ [غافر: ٦٠].

ودليل الخوف قوله تعالى: ﴿فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ [آل عمران: ١٧٥].

ودليل الرجاء قوله تعالى: ﴿فَمَنْ كَانَ يَرْجُو لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا (١١٠)﴾ [الكهف: ١١٠].

ودليل التوكل قوله تعالى: ﴿وَعَلَى اللهِ فَتَوَكَّلُوا إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ [المائدة: ٢٣]، وقوله: ﴿وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللهِ فَهُوَ حَسْبُهُ﴾ [الطلاق: ٣].

ودليل الرغبة والرهبة والخشوع قوله تعالى: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا وَكَانُوا لَنَا خَاشِعِينَ﴾ [الأنبياء: ٩٠].

ودليل الخشية قوله تعالى: ﴿فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَاخْشَوْنِي﴾ [البقرة: ١٥٠].

ودليل الإنابة قوله تعالى: ﴿وَأَنِيبُوا إِلَى رَبِّكُمْ وَأَسْلِمُوا لَهُ﴾ [الزمر: ٥٤].

ودليل الاستعانة قوله تعالى ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ [الفاتحة: ٥]، وفي الحديث: «وإذَا اسْتَعَنْتَ فَاسْتَعِنْ بِاللهِ».

ودليل الاستعاذة قوله تعالى: ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ﴾ [الناس: ١].

ودليل الاستغاثة قوله تعالى: ﴿إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ﴾ [الأنفال: ٩].

ودليل الذبح قوله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ * لَا شَرِيكَ لَهُ وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ﴾ [الأنعام: ١٦٢، ١٦٣]، ومن السنة: «لعنَ اللهُ مَنْ ذَبَحَ لِغَيرِ اللهِ».

ودليل النذر قوله تعالى: ﴿يُوفُونَ بِالنَّذْرِ وَيَخَافُونَ يَوْمًا كَانَ شَرُّهُ مُسْتَطِيرًا﴾ [الإنسان: ٧].

قال -رحمه الله-: وأنواع العبادة التي أمر الله بها مثلُ الإسلام والإيمان والإحسان، هذا شروعٌ من المؤلف -رحمه الله- في بيان بعضِ أنواع العبادةِ، وبدأ بذكر الإسلام والإيمان والإحسان، وهي مراتب الدين، ذكرها هنا مجملةً، وسيأتي تفصيلُها -إن شاء الله تعالى- في الأصل الثاني.

قال: ومنه يعني من أنواع العبادة: الدعاء، والدعاء من أجلِّ العباداتِ، وتعريفُه طبعًا الدعاء والنداء شيء واحد، والدعاء قد دلَّ عليه قول الله تعالى: ﴿وَأَنَّ الْمَسَاجِدَ لِلهِ فَلَا تَدْعُوا مَعَ اللهِ أَحَدًا﴾ [الجن: ١٨]، وعرَفنا أن الدعاء على قسمين؛ دعاء عبادة، ودعاء مسألة، فيدخل في قوله الدعاء دعاء المسألة ودعاء العبادة، فيشمل هذا جميع العبادات، وهذا مهمٌّ لنا في أثناء الكلام على تفاصيل العبادات، هذا مهمٌّ لنا جدًّا إذا أثبتنا أن هذا الشيء عبادةٌ، فحينئذٍ يدخل في أدلة الدعاء؛ لأن الدعاء: دعاءُ عبادةٍ ودعاءَ مسألةٍ.

قال: والدليل قوله تعالى: ﴿وَأَنَّ الْمَسَاجِدَ لِلهِ فَلَا تَدْعُوا مَعَ اللهِ أَحَدًا﴾، هذا تقدَّم معنا، وعرفنا معنى المساجد، وأيضًا عرفنا العمومات الموجودة في الآية، قال: فمن صرف منها شيئًا لغير الله فهو مشركٌ كافر، مَن صَرف شيئًا من أنواع هذه العبادة -ذكر الشيخ: الخوف الرجاء والرهبة إلى آخره- من صَرف شيئًا منها لغير الله فهو مشركٌ كافر؛ لأنه صرفَ العبادةَ لغير الله، فيكون مشركًا ويكون كافرًا أيضًا؛ لأنه أنكر شيئًا من حقِّ الله -عزَّ وجلَّ- وهو العبادة، العبادة لا تُصرفُ إلا لله -عزَّ وجلَّ- فإذا صرفها لغيره فقد أنكرَ حقَّ الله -عزَّ وجلَّ- في تفرُّده -جلَّ وعَلا- بالعبادة فيكونُ كافرًا؛ ولهذا كل مشرك فهو كافر، ولا عَكسَ؛ قد يكون كافرًا وليس بمشرك؛ كالملحد مثلًا، الملحد الذي لا يَعبد غير الله -عزَّ وجلَّ- ولا يعترف بوجود الله هذا نقول كافر،

فهل هو مشرك؟ ليس مشركًا لكن كل مشرك فهو كافر، مَن جهة أنه جحدَ حق الله -عزَّ وجلَّ- في تفرُّده -جلَّ وعَلا- بالعبادة.

قال والدّليل قوله تعالى: ﴿وَمَن يَدْعُ مَعَ اللّهِ إِلَهًا آخَرِ لا بُرْهَانَ لَهُ بِهِ فَإِنَّمَا حِسَابُهُ عِنْدَ رَبِّهِ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الْكَافِرُونَ﴾ [المؤمنون: ١١٧]، ﴿وَمَن يَدْعُ مَعَ اللّهِ﴾، عرفنا هذا يدخل في دعاءِ العبادةِ ودعاء المسألة: ﴿وَمَن يَدْعُ مَعَ اللّهِ إِلَهًا آخَرِ﴾، سمَّى الذي يُعبَد من دون الله -عزَّ وجلَّ- إلهًا ومن المعلوم أنه لا إله حق إلا الله جلَّ وعَلا.

قال: لا برهان له به، يعني: لا دليل له على استحقاق هذا الإله أن يُعبَد: ﴿وَمَن يَدْعُ مَعَ اللّهِ إِلَهًا آخَرِ لا بُرْهَانَ لَهُ﴾، ما عنده برهان أنه يُعبَد من دون الله -جلَّ وعَلا- وهذا يسميه العلماء "الصفة الكاشفَة" المقصود منها: بيان الأمر الواقع، يعني كل من دعا غير الله -عزَّ وجلَّ- فلا يمكن أن يكونَ له برهان على أن دعوته لغير الله حق أبدًا، وليس للكلام مفهوم. تنتبهون لهذا؟ ﴿وَمَن يَدْعُ مَعَ اللّهِ إِلَهًا آخَرِ لا بُرْهَانَ﴾، هل يفهم منه أنه إن كان له برهان جاز؟ هذا ما يُفهم أبدًا إذًا ما المقصود من هذا القيد؟ يقول العلماء: هذه صفة كاشفة تبين الأمر الواقع، لا مفهوم لها.

قال: ﴿فَإِنَّمَا حِسَابُهُ عِنْدَ رَبِّهِ﴾ يعني من يدعو غير الله -عزَّ وجلَّ- وليس عنده برهان على ذلك، فالله -عزَّ وجلَّ- سوف يحاسبه، وهذا فيه التهديد والوعيد له، ما الظن فيمن أشرك مع الله -عزَّ وجلَّ- كيف يكون حسابه؟ قال: ﴿إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الْكَافِرُونَ﴾. لاحظ أنه وصف من يدعو غير الله -عزَّ وجلَّ- يدعو مع الله إلهًا آخر، وصفه بأنه كافر، هذا ينطبق على كفار قريش وعلى غيرهم، كل من حصل منه وصف الشرك، ووصف الكفر يحكم عليه، طبعًا له ضوابط عند أهل العلم، لكن الكلام الآن على الكلام العام: مَن وُجد فيه هذا الوصف: دعا غير الله -عزَّ وجلَّ- فإنه مشرك كافر لهذه الآية.

قال في الحديث: «الدعاء مخ العبادة»، هذا ذكر دليل الدعاء، ذكر جملة من العبادات، وسوف يستدل على كل واحدة منها «الدُّعاءُ مُخُّ العِبادَة» هذا نصُّ حديثٍ أخرجه التِّرمذيُّ في جامعه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «الدُّعاءُ مُخُّ العِبادةِ»، وقال بعده الترمذي: هذا حديث غريب من هذا الوجه لا نعرفه إلا من حديث ابن لهيعَةَ، ولكن سَاقَ الترمذي -رحمه الله- بعده

مباشرة حديثًا عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: «الدعاء هو العبادة»، ثم قرأ: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ﴾ [غافر: ٦٠].

وقال بعده الترمذي: هذا حديث حسنٌ صحيحٌ، المقصود: أن هذا فيه الدلالة على أن الدعاء عبادة. ما معنى مخ العبادة؟ معنى مخ العبادة: يعني خالصُها ولُبُّها، يقول: مخ الشيء خالصه، وإنما كان الدعاء خالص العبادة؛ لأنه مَا من عبادة إلا وفيها دعاءٌ، كما تقدم معنا؛ إما دعاء عبادة، وإما دعاء مسألة.

اللفظ الثاني الذي عند الترمذي: الدعاء هو العبادة، تلحظ أنه مقرون بالآية قرأ النبي عليه الصلاة والسلام بعدما ذكر هذا الحديث: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾، وهي الآية التي ذكر الشيخ -رحمه الله- قال: ودليل قوله تعالى: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾، وجه الدلالة من الآية على أن الدعاء عبادة، يقال في وجه الدلالة: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِي﴾، هذا أمرٌ بالدعاء، والله -عزَّ وجلَّ- لا يأمر إلا بشيء يحبه، أم لا؟ هل يأمر بشيء يكرهه؟ لا يأمر إلا بما يحب، سواء كان هذا الأمر أمرَ وجوبٍ أم أمرَ استحبابٍ.

وإذا كان هذا الشيء محبوبًا إلى الله فيدخل في تعريف العبادة الذي مرَّ معنا في كلام شيخ الإسلام ابن تيمية -رحمه الله- ما هو التعريف؟ اسمٌ جامع لكل ما يحبه الله ويرضاه إلى آخره.

واضح الدليل الآن. إذًا كل ما أمر الله -عزَّ وجلَّ- به فإنه يحبُّه، وإذا أحبه صار داخلًا في حدِّ العبادة فيكون عبادةً لا تُصرف إلا لله -عزَّ وجلَّ-.

﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾، أيضًا وجه دلالة آخر: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾، أمرٌ بالدعاء، هذا عرفنا الآن قال: ﴿أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾، قوله: ﴿أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾ هذا ترتيب ثواب على دعاء الله -عزَّ وجلَّ- أم لا؟ أيضًا مما تعرف به العبادة إذا رتب على فعل الثواب، مَن فعل كذا دخل الجنة، من فَعل كذا فله كذا من الحسناتِ، مَن فعل كذا يَستجيب الله له دلَّ على أنه محبوب إلى لله، إذا كان محبوبًا دخل فيه تعريف العبادة، هنا قال: ﴿ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾.

ثم قال: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي﴾ وهذا يحتاج منَّا وقفة، ما قال: عن دعائهم.

قال عن ماذا؟ دلَّ على أن: الدعاء عبادة: ﴿سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ﴾ يعني كما أنهم تكبروا عن عبادة الله وحدَه في الدنيا فإن الله -عزَّ وجلَّ- يعاقبهم بالذُّل والصَّغار يوم القيامة فيدخلون جهنم داخرين؛ يعني أذلاء صاغرين، وهذا من الجزاء من جنس العمل، هذه قاعدة مطَّردة في الشريعة، كما يقول ابن القيم -رحمه الله- وقد دلَّ عليها أكثر من مائة دليل، هذا من أدلتها: أن يعاقب الإنسان أو يُجازى على وِفق عمله؛ إن خيرًا فخير وإن شرًّا فشر.

قال: ودليل الخوف قوله تعالى: ﴿فَلَا تَخَافُوهُم وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُؤْمِنِينَ﴾ [آل عمران: ١٧٥]، الخوف عبادة قلبية، وقد أمر الله -عزَّ وجلَّ- به في هذه الآية، فقال: ﴿وَخَافُونِ﴾، إذًا واضح لأنه مادام أمرَ به فهو محبوب إليه، فيكون داخلًا في حدِّ العبادة، ولهذا لا تُصرَف عبادة الخوف إلا لله وحده، هنا أمر بالخوف منه ونهى عن الخوف من غيره، قال: ﴿فَلَا تَخَافُوهُم وَخَافُونِ﴾.

ثم قال: ﴿إِن كُنتُم مُؤْمِنِينَ﴾، هذا فيه أن الخوف من الله -عزَّ وجلَّ- وحدَه شرط للإيمان: ﴿فَلَا تَخَافُوهُم وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُؤْمِنِينَ﴾، فدلَّ على أنه إذا حصل الخوف من غير الله -عزَّ وجلَّ- ينتفي معه الإيمان ولكن هذه المسألة تحتاج إلى تفصيل فإن الخوف على أقسام؛ منه الخوف الذي لا يُصرف إلا لله -عزَّ وجلَّ-، منه الخوف الطبيعي.

فالخوف الذي لا يُصرف إلا لله -عزَّ وجلَّ- هو الخوف من غير الله -جلَّ وعَلا- فيما لا يَقدر عليه إلا الله، الخوف من غير الله -عزَّ وجلَّ- في أمرٍ لا يقدر عليه إلا الله؛ كخوف المشركين من آلهتهم أن تصيبهم بأذًى، يعني يقولون: إذا لم نوقِّر الآلهة، أو تكلم شخص في الآلهة أو سبَّ الآلهة يقولون ماذا؟ أما تخاف أن تصيبك بأذًى؟ تصيبك بالموت؟ تصيبك بالمرض؟ تصيبك بموت ولدك؟ أو نحو ذلك هذا ماذا؟ هذا اسمه خوف السر، اسمه العلماء "خوف السر" يعني أن تخافَ من شخص من غير أن يوجد أي سبب من الأسباب، هذا لا يصرف إلا لله -عزَّ وجلَّ- أن تخاف من الله -عزَّ وجلَّ- إن عصيتَه أن يصيبك بالمرض أم لا؟ هذا خوف السرِّ، هذا لا يكون إلا لله، أما أن يُخاف من الآلهة أو يُخاف من وليٍّ مقبور قد يكون عظامًا باليةٍ، يخاف منه

أنه إن لم يوقره، إن لم يحلف به، إن لم يفِ بنذره له، أن يخاف أن يصيبه بالأذى والمرض ونحوه، هذا نوع من الشرك المُخرج من ملة الإسلام، إذًا هذا هو الخوف الذي نتكلم عنه.

أما الخوف الطبيعي: أن يخافَ الإنسان من السَّبع أن يفترسه، أو من النار أن تحرقه، هذا خوف طبيعي لا يؤثر على توحيد العبد فإنه قد وُجد من الأنبياء والرسل عليهم الصلاة والسلام.

قال الله -جلَّ وعَلا-: عن نبيه موسى عليه السلام: ﴿فَأَوْجَسَ فِي نَفْسِهِ خِيفَةً مُوسَى﴾ [طه: ٦٧]، هذا الخوف خوف طبيعي لا يضرُّ إن شاء الله.

قال: ودليل الرجاء قوله تعالى: ﴿فَمَنْ كَانَ يَرْجُو لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا﴾ [الكهف: ١١٠]، الرجاء عبادةٌ قلبيةٌ، والرجاءُ ضد الخوف، ومعنى الرجاء: الطمع والرغبة في الحصول على المقصود، الرغبة والطمع في الحصول على المقصود، وهو أيضًا أقسام، من أقسامه رجاءُ المخلوق فيما لا يَقدر عليه إلا الله، هذا ما حكمه؟ شركٌ أكبر مثل رجاءِ مخلوق في هداية قلبه، أو رجاء مخلوق أن يردَّ عليه بصره من دون سببٍ، ليس بطبيبٍ ولا عنده طريق لعلاجها أبدًا لكن يعتقد فيه هذا الاعتقاد، فهذا نقول: شركٌ أكبر يُخرج من ملة الإسلام؛ لأنه لا يكون هذا الرجاء إلا لله عزَّ وجلَّ.

أما الرجاء الطبيعي كَأَن يرجو حصولَ الخير له من هذا المخلوق، يعني يرجو من الغَني أن يعطيه شيئًا من المال، هذا مُباح ولا بأس فيه بشرط ألا يترتب عليه فعلُ محرَّم أو تركُ واجبٍ لا يبدأ يحابي هذا المخلوق فيفعل شيئًا من المعاصي لأجله، لأجل ما يرجو منه، أو يترك شيئًا من الواجبات لأجل ما يرجو منه، إذا لم يترتب على هذا معصية، فهذا لا يكون من الرجاء الذي هو عباده.

ما وجه الدلالة من الآية: ﴿فَمَنْ كَانَ يَرْجُو لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا﴾؟ [الكهف: ١١٠]، هل فيه أمر بالرجاء هنا؟ ما فيه أمر، ما وجه الدلالة؟ يُقال: إن الله -عزَّ وجلَّ- امتدح من يرجو لقاء ربِّه، يعني ملاقاةَ ربه يوم القيامة، وجعل طريقَ ذلك العمل الصالح وترك الشرك به سبحانه، مادام امتدح هذا الذي يرجو لقاء ربِّه دلَّنا على أن الرجاءَ عبادةٌ، يعني دلَّنا على أن الرجاءَ محبوبٌ إلى الله، وإذا كان محبوبًا فيكون عبادة.

قال: ودليل التوكل قوله تعالى: ﴿وَعَلَى اللهِ فَتَوَكَّلُوا إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ [المائدة: ٢٣]، التوكُّل: عبادة قلبيَّة أيضًا، ومعناه: تفويض الأمر إلى الله والاعتماد عليه في حصول المطلوب ودفع المرهوبِ مع بذلِ الأسبابِ المشروعةِ، هذا تعريفُ التوكُّل في الشرع، ودليله قوله تعالى: ﴿وَعَلَى اللهِ فَتَوَكَّلُوا إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾، هذا واضح الدلالة؛ لأنه أمرَ بالتوكل فيكون محبوبًا إلى الله فيكون حينئذٍ عبادة وقوله: ﴿وَعَلَى اللهِ فَتَوَكَّلُوا﴾، هذا يفيد الحصرَ يعني: توكلوا على الله لا على غيره، من أين أخذنا الحصر؟ من تقديم ما حقه التأخير؛ فإن الجار والمجرور حقُّه أن يؤخرَ يعني: سبك الكلام أن يقال: توكلوا على الله، لكن لما قدم الجار والمجرور وحقُّه أن يؤخَّر أفادنا الحصر: ﴿وَعَلَى اللهِ فَتَوَكَّلُوا إِن كُنتُم مُؤْمِنِينَ﴾، وقال فيها كما تقدم: هذا فيه أن التوكل على الله -عزَّ وجلَّ- وحده شرط لصحة الإيمان؛ فمن توكل على غير الله -عزَّ وجلَّ- فإنه ليس بمؤمن، طبعًا هذا أيضًا فيه تفصيل.

أيضًا في قول الله تعالى: ﴿وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللهِ فَهُوَ حَسْبُهُ﴾ [الطلاق: ٣]، ما وجه الدلالة من الآية على أن التوكل عبادةٌ؟ معنى حَسْبُه: يعني كافيه جميع أموره، كافيه ما أهمَّه، وإذا كان الله -عزَّ وجلَّ- كافي من توكل عليه دلَّ على أنه لا يجوز التوكل إلا على مَن بيده الكفاية وحده، لا يتوكل على غيره ممن ليس بيده حسبٌ ولا كفاية.

وأيضًا يقال في وجه الدلالة: أنه رتَّب على التوكل عليه سبحانه وبحمده الجزاءَ وهو الكفاية، أن يكفي عبده جميعَ ما أهمه إذا توكل عليه، فدلَّ هذا على أنه محبوبٌ من الله -عزَّ وجلَّ- فيكون عبادة.

قال: ودليل الرغبةِ والرهبةِ والخشوعِ قولُه تعالى: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا وَكَانُوا لَنَا خَاشِعِينَ﴾ [الأنبياء: ٩٠]، هذه ثلاثُ عباداتٍ قلبيةٍ، الرَّغبة معناها: طلب الشيء بمبالغة يعني أن يطلب الشيء طلبًا بالغًا، وعُرِّفت أيضًا بأنها الرجاء المؤكد الذي معه حبٌّ وخضوع لمن يرجوه يعني فيها شبهٌ من الرجاء، لكنه رجاء مؤكد، فمن رغِب من المخلوق فيما لا يَقدر عليه إلا الله فصرف العبادة فهو صارفٌ فهو قد صرف العبادة لغير الله عزَّ وجلَّ.

وأما الرَّغبة من المخلوق في أمر لا يَقدر عليه إلا الله، فهذِه تكونُ شركًا أكبر إذا رغب من مخلوق في أمر لا يقدر عليه إلا الله، فهذَا شركٌ أكبر يخرج من ملة الإسلام، أما إذا رغب من المخلوق في أمر "يقدر عليه" -قبل قليل ماذا قلت؟ "في أمر لا يقدر عليه إلا الله" هذا يكون شركًا، لكن إذا رغب من مخلوق في أمر يقدر عليه المخلوق- فنقول: هذا ليس شركًا لكن بشرط ألا يترتَّب على هذه الرغبة الوقوع في معصية الله عزَّ وجلَّ.

من الأدلةِ علَى أنَّ الرغبة عبادةٌ قوله تعالى: ﴿وَإِلَى رَبِّكَ فَارْغَبْ﴾ [الشرح: ٨]،: ﴿فَإِذَا فَرَغْتَ فَانْصَبْ﴾ [الشرح: ٧]،: ﴿وَإِلَى رَبِّكَ فَارْغَبْ﴾، فهنا أمر بالرغبة فدلَّ على أنَّها محبوبةٌ إلى اللهِ، فتكون عبادةٌ ولاحظ أيضًا قال: ﴿وَإِلَى رَبِّكَ فَارْغَبْ﴾، في تقديمِ ما حقُّه التأخير فيفيد الحصرَ يعني: فارغَب إلى ربك لا إلى غيره.

وأما الرهبة فمعناها قريب من الخوف، قيل هي الخوف الذي يُثمر الهَربَ من المخوف منه.

وأما الخشوع: فمعناه الذُّل والسَّكن، وهو خِلاف الحركة والإطراب.

دليلُ هذه العبادات الثلاثة قوله تعالى: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا وَكَانُوا لَنَا خَاشِعِينَ﴾ [الأنبياء: ٩٠]، فأثنى الله -عزَّ وجلَّ- على هؤلاءِ بهذه الصفاتِ الثلاثة، وإذا أثنى عليهم بهذه الصفات الثلاثة دلَّ على أنها محبوبةٌ إلى الله، وإذا صارت محبوبة فهي عبادةٌ.

ولاحظ أن قوله: ﴿يَدْعُونَنَا﴾ يشمل ماذا؟ دعاء العبادة ودعاء المسألة؛ ففي عباداتهم، وفي سؤالهم لله -عزَّ وجلَّ- يكون معه رغبٌ ورهبٌ.

ثم قال: ﴿وَكَانُوا لَنَا خَاشِعِينَ﴾ هذا فيه الدلالة على أنَّ الخشوع لا يكون إلا لله -عزَّ وجلَّ- وتلحظ هنا تقديم أيضًا -الجار المجرور- وكان حقه أن يؤخر: ﴿وَكَانُوا لَنَا خَاشِعِينَ﴾، تقدير الكلام: خاشِعين لنا، فلما قدم الجار والمجرور أفاد الحصر يعني: خاشعين لنا لا لغيرنا، هذا هو المعنى.

قال: ودليل الخشية قوله تعالى: ﴿فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَاخْشَوْنِي﴾ [البقرة ١٥٠]، الخشية: عبادة قلبيةٌ، وهي بمعنى الخوف، لكنها أخص منه؛ فهي الخوفُ الذي يحمل صاحبه على اللجوء إلى الله -عزَّ وجلَّ- والاستقامة بفعل أمرِه واجتناب نهيه، وقال بعض أهل العلم في تعريف الخشية: هي الخوف المبنيُّ على العلم بعظمةِ مَن يخشاه، الدليل على أن الخشيةَ عبادةٌ قوله تعالى: ﴿فلا تخشوهم واخشونِ﴾، والدلالة من الآية ظاهرة في أنَّ الله -عزَّ وجلَّ- أمر بخشيته سبحانه فتكونُ الخشية عبادة، وأيضًا فيها توحيد الله -عزَّ وجلَّ- بالخشية في قوله: ﴿فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَاخْشَوْنِي﴾.

قال: ودليل الإنابةِ قوله تعالى: ﴿وَأَنِيبُوا إِلَى رَبِّكُمْ وَأَسْلِمُوا لَهُ﴾ [الزمر: ٥٤]، فالإنابة بمعنى التوبة إلا أنها أخص منها، فهي أعلى مقامات التوبة، التوبة فيها: الإقلاع عن الذنب، والندم على فعله، والعزم على عدم العودة إليه، هذه التوبة.

أما الإنابة: فيها شيء زائدٌ، وهو الإقبالُ على الله تعالى بالعبادة والازدياد منها؛ فهذا يُقال مُنيب، والدليل عليها قوله تعالى: ﴿وَأَنِيبُوا إِلَى رَبِّكُمْ﴾، والدلالةُ ظاهرةٌ من جهة الأمر، فتكون محبوبةً وتكون عبادةً: ﴿وَأَنِيبُوا إِلَى رَبِّكُمْ وَأَسْلِمُوا لَهُ﴾.

قال: ودليل الاستعانة قوله تعالى: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ [الفاتحة: ٥]، الاستعانةُ عبادةٌ، وهي طلب العون والاستعانة التي لا يجوز صرفها إلا لله -عزَّ وجلَّ- هي أن يُستعان بمخلوق فيما لا يقدر عليه إلا الله؛ فمن استعَان بمخلوقٍ فيما لا يقدر عليه إلا الله فهو مشركٌ الشرك الأكبر.

أما الاستعانة بالمخلوق في أمر يَقدر عليه المخلوق فهذه مباحةٌ، كأن يستعين بشخص في حمل متاع ثقيلٍ، أو يستعين به في رأيٍ يستشيره أو نحو ذلكَ، هذا كله من المباح؛ ولهذا قال النبي صلى الله عليه وسلم: «واللهُ في عونِ العبدِ ما كانَ العبدُ في عونِ أخِيهِ»، مما يدلُّ أيضًا على أن الاستعانة عبادةٌ قول الله تعالى في سورة الفاتحة: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾، فقوله: ﴿إِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾، هذا فيه حصرُ الاستعانة بالله وحده؛ لأنه قدَّم المعمول على العامل: ﴿إِيَّاكَ﴾، هذا

هو المفعول، و﴿نَسْتَعِينُ﴾ هذا الفعل، والمفعول حقه أن يؤخَّر لا حقه أن يقدَّم، فلما قدم ما حقه أن يؤخر أفادنا الحصر، فيكون المعنى: نستعين بك ولا نستعين بغيرك.

قال وفي الحديث: «إِذَا اسْتَعَنْتَ فَاسْتَعِنْ بِاللهِ» هذا حديثٌ أخرجه الترمذيُّ في وصيةَ النبي صلى الله عليه وسلم لابن عباس رضي الله عنهما قال فيه: «إذا سَأَلْتَ فَاسْأَلِ اللهَ وَإِذَا اسْتَعَنْتَ فَاسْتَعِنْ بِاللهِ»، فهذا فيه حصر الاستعانة بالله -جلَّ وعَلا- وحده.

قال: ودليل الاستعاذة قوله تعالى: ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ﴾ [الفلق: ١]، و﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ﴾ [الناس: ١]، الاستعاذةُ: طلب الإعاذة، ومعناها: الاستجارةُ والالتجاءُ والاعتصامُ؛ فالاستعاذة بمخلوقٍ في أمرٍ لا يقدر عليه إلا الله شركٌ أكبرُ؛ لأن هذه الاستعاذة عبادةٌ لا تُصرف إلا لله وحده، والدليل على كونها عبادة ما ذكر الشيخ -رحمه الله- من قوله تعالى: ﴿قل أعوذ برب الفلق﴾، فأمر -جلَّ وعَلا- بالاستعاذة في قوله: ﴿قُلْ أَعُوذُ﴾ فدل على أنها محبوبة إلى الله فتكون عبادةً.

أما الاستعاذة بمخلوق في أمرٍ يقدر عليه المخلوق فهي جائزة كالاستعاذة بالسُّلطان من ظالمٍ يريد أن يبطشَ به فيستعيذ بالسلطان، هذا لا بأس به؛ ولهذا جاء في حديث الفتن أن النبيَّ عليه الصلاة والسلام قال: «من وَجَدَ مَلجأً أوْ مَعاذًا فَليعُذ به»، فالعلم يمكن أن يُستعان بمخلوقٍ في أمر يقدر عليه.

قال: ودليل الاستغاثةِ قوله تعالى: ﴿إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ﴾ [الأنفال: ٩]، الاستغاثة: طلب الإغاثة، ومعناها الإنقاذ من الشدَّة، والاستغاثةُ أخصُّ من الدعاء؛ يعني أن الاستغاثةَ نوعٌ من أنواع الدعاء فهي دعاءٌ خاصٌّ يكونُ للمكروب خاصة، يعني نقول: الاستعاذة هي دعاء المكروب خاصة وبناءً على هذا فمَن استغاث بمخلوقٍ فيما لا يقدر عليه إلا الله فهو مشرك؛ لأنه صرف العبادة لغير الله، والدليل على كونها عبادة قوله تعالى: ﴿إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ﴾، ما هو وجه الدلالة؟

﴿فَاسْتَجَابَ لَكُمْ﴾، رتَّب عليها الثَّواب والجزاءَ، فدل على أنها محبوبة إلى الله، فتكون عبادةً.

أيضًا يُستدل بما تقدم من أدلةِ كونِ الدعاء عبادةً؛ لأني ذكرت قبل قليل أن الاستغاثة نوعٌ من أنواع الدعاء، وإذا كانت دعاءً فجميع ما تقدم من أدلة أن الدعاء عبادة تدخل معنا في هذه المسألة.

قال: ودليل الذبح قوله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ * لَا شَرِيكَ لَهُ﴾ [الأنعام: ١٦٢، ١٦٣]، الذَّبحُ عبادةٌ ماليةٌ، والمقصودُ بعبادة الذبح: إراقة الدم تعظيمًا للمذبوح له وتقربًا إليه. يعني أنتَ إذا ذبحتَ أُضحية أو ذبحتَ الهديَ أو ذبحتَ العقيقةَ فأنت تتقرَّب إلى الله -عزَّ وجلَّ- بأيِّ شيء؟ بإراقة الدم؛ لأن بعضَ الناس يذهب ذهنه إلى التقرب باللحم، التقرب باللحم شيء آخر، المقصود: إراقة الدم، هذا هو الذي تتقرب إلى الله -عزَّ وجلَّ- به؛ ولهذا مَن ذبح متقربًا بإراقة الدم لغير الله -عزَّ وجلَّ- كمن يذبح للجني أو يذبح للسلطان أو غير هؤلاء فهذا قد صرف العبادة لغير الله -عزَّ وجلَّ- فيكون مشركًا، ما الدليل على أن الذبح عبادة؟ ذكر الشيخ قوله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي﴾ النُّسُك هو الذبح: ﴿وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي﴾ أي: ما أحيا عليه من العمل وما أموت عليه كله لله عزَّ وجلَّ.

اللام في قوله: ﴿لِلهِ﴾ هذهِ تُفيد الاختصاص، يعني أنه لله -عزَّ وجلَّ- وحدَه لا لغيره؛ ولهذا قال: ﴿لِلهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾، ففي إفراده -جلَّ وعَلا- بالذَّبح.

ويدل له أيضًا قول الله تعالى: ﴿فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَانْحَرْ﴾ [الكوثر: ٢]، تقديرُ الكلام وانحرْ لربك، يعني لا لغيره، فهذا فيه أيضًا الأمر بالنَّحر فيكون محبوبًا ويكون عبادةً لله عزَّ وجلَّ.

قالوا: ومن السنة: «لعَنَ اللهُ مَنْ ذَبحَ لِغيرِ اللهِ» هذا الحديث أخرجه مسلم، وذكر الشيخ -رحمه الله- الشاهدَ منه، لكن ما وجه الدلالة على كونِ الذبح عبادة. وإذا رتب عليه العقاب، هل كل ما رتب عليه العقاب يكون عبادة؟ رتب عليه عقابًا يكون منهيًّا عنه.

يقال في وجه الدلالة: أنا ألفت الانتباه لأنه ليس بظاهر، تنتبهون لهذا.

وجه الدلالة من هذا الحديث على أن الذبح عبادةٌ أن يقال: إن هذا الحديث يدلُّ على أن الذبحَ لغير الله -عزَّ وجلَّ- مما يبغضه الله؛ لأن فاعلَه ملعونٌ، قال: «لَعَنَ اللهُ مَنْ ..» فيكون مرتكبًا لكبيرة من كبائر الذنوب، وإذا كان -جلَّ وعَلا- يُبغض الذبح لغيره، ففي مقابل ذلك

يحب من ذبَح له وحده دون ما سواه، وإذا كان كذلك فيكون عبادةً محبوبة إلى الله فيدخل في حدِّ العبادة الذي ذكره شيخ الإسلام.

قال: ودليل النذرِ قوله تعالى: ﴿يُوفُونَ بِالنَّذْرِ وَيَخَافُونَ يَوْمًا كَانَ شَرُّهُ مُسْتَطِيرًا﴾ [الإنسان: ٧]، النَّذر تعريفه شرعًا: هو إلزامُ مكلفٍ نفسَه عبادةً غيرَ واجبةٍ عليه بأصل الشرع تعظيمًا للمنذور له، هذا معناه على وجه العموم إن كان النَّذر لله -عزَّ وجلَّ- فهو عبادة، إن كان لغير الله -عزَّ وجلَّ- فهو شرك. ما الدليل على أن النَّذر عبادة؟ ذكر الشيخ -رحمه الله- قوله تعالى: ﴿يُوفُونَ بِالنَّذْرِ وَيَخَافُونَ يَوْمًا كَانَ شَرُّهُ مُسْتَطِيرًا﴾، هذه الآية في سياق الثناء على عباد الله المؤمنين فأثنى الله -عزَّ وجلَّ- عليهم بأشياءَ، منها: أنهم ﴿يُوفُونَ بِالنَّذْرِ﴾، فإذا أثنى عليهم لذلك دلَّ على أن الوفاءَ بالنذر محبوب إلى الله فيكون عبادةً، لكن قد يرد على هذا أنه في الوفاء بالنذر وليس في أصل النذر. تنتبه الآن.

عندنا نذر وعندنا الوفاء بالنذر كلاهما عبادةٌ، هذا الدليل في أي شيء؟ في الوفاء بالنذر، طيب ما الدليل على أن الوفاء بالنذر عبادة؟ فلو قال قائل: لله عليَّ نذر أن أصومَ خمسة أيام، ما الدليل على أنه عبادة؟ نقول الدليل عليه قول الله تعالى: ﴿وَمَا أَنْفَقْتُمْ مِنْ نَفَقَةٍ أَوْ نَذَرْتُمْ مِنْ نَذْرٍ فَإِنَّ اللهَ يَعْلَمُهُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصَارٍ﴾ [البقرة: ٢٧٠].

وإذا كان -جلَّ وعَلا- يعلمه، ما الذي سيترتب على هذا العلم؟ الثواب وإذا كان الله -عزَّ وجلَّ- يثيب من أنفق في سبيله ومن نذر له -جلَّ وعَلا- دلَّ على أنه محبوب فيكون عبادة. واضح؟

إذًا الآن عرفنا الدليل على النذر ابتداءً، وعلى الوفاء بالنذر أنَّ كله عبادة، وإذا كان عبادة لا يُصرَف إلا لله -عزَّ وجلَّ- وحده.

الأصل الثاني: معرفة دين الإسلام بالأدلة، وهو الإسلام لله بالتوحيد والانقياد له بالطاعة والبراءة من الشرك وأهله، وهو ثلاث مراتب: الإسلام والإيمان والإحسان، وكل مرتبة لها أركان.

أركان الإسلام خمسة: شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمدًا رسول الله، وإقام الصلاة، وإيتاء الزكاة، وصوم رمضان، وحج بيت الله الحرام.

فدليل الشهادة قوله تعالى: ﴿شَهِدَ اللهُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَالْمَلَائِكَةُ وَأُولُو الْعِلْمِ قَائِمًا بِالْقِسْطِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ [آل عمران: ١٨]، ومعناها: لا معبود بحقٍّ إلا الله وحده. ﴿لَا إِلَهَ﴾ نافيًا جميع ما يُعبد من دون الله: ﴿إلا الله﴾ مثبتًا العبادة لله وحده لا شريك له في عبادته، كما أنه ليس له شريك في ملكه، وتفسيرها الذي يوضحها قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ إِنَّنِي بَرَاءٌ مِمَّا تَعْبُدُونَ * إِلَّا الَّذِي فَطَرَنِي فَإِنَّهُ سَيَهْدِينِ * وَجَعَلَهَا كَلِمَةً بَاقِيَةً فِي عَقِبِهِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ [الزخرف: ٢٦- ٢٨]، وقوله تعالى: ﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللهِ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾ [آل عمران: ٦٤].

ودليل شهادة أن محمدًا رسول الله قوله تعالى: ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ﴾ [التوبة: ١٢٨]، ومعنى شهادة أن محمدًا رسول الله: طاعته فيما أمر، وتصديقه فيما أخبر، واجتناب ما نهى عنه وزجر، وأن لا يُعبد الله إلا بما شرَع.

ودليل الصلاة والزكاة وتفسير التوحيد: قوله تعالى: ﴿وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاءَ وَيُقِيمُوا الصَّلَاةَ وَيُؤْتُوا الزَّكَاةَ وَذَلِكَ دِينُ الْقَيِّمَةِ﴾ [البينة: ٥].

ودليل الصيام: قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ [البقرة: ١٣٨].

ودليل الحج: قوله تعالى: ﴿وَلِلهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ اللهَ غَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ﴾ [البقرة: ٩٧].

المرتبة الثانية: الإيمان وهو بضعٌ وسبعون شعبة فأعلاها قول: لا إله إلا الله، وأدناها إماطةُ الأذَى عن الطريقِ، والحياءُ شعبةٌ من الإيمانِ، وأركانُه ستةٌ: أن تؤمنَ باللهِ وملائكتِه وكتبِه ورسُله واليومِ الآخرِ وبالقدرِ خيرِه وشرِّه، والدليلُ على هذه الأركان الستة قوله تعالى: ﴿لَيْسَ الْبِرَّ أَنْ

تُوَلُّوا وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ﴾ [البقرة: ١٧٧].

ودليل القدَر قوله تعالى: ﴿إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ﴾ [القمر: ٤٩].

المرتبة الثالثة: الإحسان ركنٌ واحد؛ فهو أن تعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك، والدليل قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوْا وَالَّذِينَ هُمْ مُحْسِنُونَ﴾ [النحل: ١٢٨]، وقوله تعالى: ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى الْعَزِيزِ الرَّحِيمِ * الَّذِي يَرَاكَ حِينَ تَقُومُ * وَتَقَلُّبَكَ فِي السَّاجِدِينَ * إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ [الشعراء: ٢١٧- ٢٢٠]، وقوله تعالى: ﴿وَمَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ وَمَا تَتْلُو مِنْهُ مِنْ قُرْآنٍ وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ﴾ [يونس: ٦١]، والدليل من السنة: حديث جبريل المشهور، عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال: «بَيْنَمَا نَحْنُ جُلوسٌ عِنْدَ النبي اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِذْ طَلَعَ عَلَيْنَا رَجُلٌ شَدِيدُ بياضِ الثِّيَابِ، شَدِيدُ سَوَادِ الشَّعر، لَا يُرَى عَلَيْهِ أَثَر السَّفَر، وَلَا يَعْرِفُهُ مِنَّا أَحَدٌ، فجَلَسَ إِلَى النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَأَسْنَدَ رُكْبَتَيْهِ إِلَى رُكْبَتَيْهِ، وَوَضَعَ كَفَّيْهِ عَلى فَخِذَيْهِ، وَقَالَ: يَا مُحَمَّدُ، أَخْبِرْنِى عَنِ الإِسْلَامِ. فَقَالَ: أَنْ تَشْهَدَ أَنْ لَا إِلهَ إِلَّا اللهُ وَأَن مُحَمَّدًا رَسُولُ اللهِ، وتُقِيمَ الصَّلَاةَ، وَتُؤْتِيَ الزَّكَاةَ، وَتَصُومَ رَمَضَانَ، وَتَحُجَّ الْبَيْتَ، إِنِ اسْتَطَعْتَ إِلَيْهِ سَبِيلاً . قَالَ: صَدَقْتَ. فَعَجِبْنَا لَهُ، يَسْأَلُهُ وَيُصَدِّقُهُ. قَالَ: فَأَخْبِرْنِى عَنِ الإِيمَانِ؟ قَالَ: أَنْ تُؤمِنَ بِاللهِ، وَمَلَائِكَتِهِ، وَكُتُبِهِ، وَرُسُلِهِ، وَالْيَوْمِ الآخِرِ، وَبِالْقَدَرِ خَيْرِهِ وَشَرِّهِ. قَالَ: فَأَخْبِرْنِى عَنِ الإِحْسَانِ؟ قَالَ: أَنْ تَعْبُدَ اللهَ كَأَنَّكَ تَرَاهُ، فَإِنْ لَمْ تَكُنْ تَرَاهُ، فَإِنَّهُ يَرَاكَ . قَالَ: فَأَخْبِرْنِى عَنِ السَّاعَةِ؟ قَالَ: مَا الْمَسْؤُولُ عَنْهَا بِأَعْلَمَ مِنَ السَّائِلِ . قَالَ: فَأَخْبِرْنِى عَنْ أَمَارَتِهَا؟ قَالَ: أَنْ تَلِدَ الأَمَةُ رَبَّتَهَا، وَأَنْ تَرَى الْحُفَاةَ الْعُرَاةَ، الْعَالَةَ، رِعاءَ الشَّاءَ، يَتَطَاوَلُونَ فِى الْبُنْيَانِ . قَالَ: ثُمَّ انْطَلَقَ. فَلَبِثَ مَلِيا. ثُمَّ قَالَ لِى: يَا عُمَرُ، أَتَدْرِى مَنِ السَّائِلُ؟ قُلْتُ: اللهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ. قَالَ: فَإِنَّهُ جِبْرِيلُ، أَتَاكُمْ يُعَلِّمُكُمْ دِينَكُمْ».

هذا الأصل الثاني: معرفة دين الإسلام بالأدلَّة.

تقدم معنا أن قوله بالأدلة في الإشارة إلى عدم التقليد في مسائل الاعتقاد، قال: وهو الاستسلام لله بالتوحيد، والانقياد له بالطاعة، والبراءة من الشرك وأهله.

هذا تعريف دين الإسلام تضمن هذا التعريف ثلاث جملٍ:

الجملة الأولى: الاستسلام لله بالتوحيد يعني الذل والخضوع لله تعالى بإفراده -جلَّ وعَلا- بالربوبية والألوهية والأسماء والصفات.

الثاني، أو الجملة الثانية: الانقياد له بالطاعة: فعلًا للأوامر، وتركًا للنواهي.

والجملة الثالثة: البراءة من الشرك وأهله؛ فلا بد أن يتبرَّأ المسلم من الشرك، ويعتقد بطلانه، ويتبرأ أيضًا من أهل الشرك، وأن يبغضهم وأن يعاديَهم أشد المعاداة، ولكن لا يعني هذا الظلم للكافر فإنه إذا كان بيننا وبين الكفار معاهدات أو عقود فإن الواجب أن نفيَ بهذه المعاهدات والعقود، وأيضًا لا يجوز أن يعتدَى على الكافر إذا دخل بلاد الإسلام بأمانٍ، فإنه مصونُ الدَّم والمال؛ فالمؤمن لا يغدر ولكن الكلام هنا على القلب، فلا يجوز أن يكون في قلب المؤمن محبة لأهل الكفر والضلال، لأهل الكفر والشرك لا يجوز أن يكون في القلب محبة لهم. هذا معنى البراءة هكذا في النسخة المشهورة: البراءة من الشرك وأهله هذا هو المعتمد في كلام المؤلف رحمه الله.

أما عبارة: والخلوص من الشرك وأهله. يقول الشيخ محمد بن إبراهيم -رحمه الله- عن هذه الجملة يقول: لا أدري من أين أتوْا بها يعني كأنها أُدخلت في كلام الشيخ -رحمه الله- وإنما المعروف في كلامه: والبراءة من الشرك وأهله، وهل هناك فرقٌ بين أن يقال البراءة أو الخلوص؟ نعم فيه فرق، الخلوص معناه ماذا؟ أن يتخلص من الشرك، لكن هل فيه معنى البراءة؟ لا. في معنى البراءة إذًا لا بد أن يقال: والبراءة من الشرك وأهله، ثم إن هذه الجملة، وهذه الكلمة جاءت في الآية التي احتجَّ بها الشيخ وهي في قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ إِنَّنِي بَرَاءٌ مِمَّا تَعْبُدُونَ﴾ [الزخرف: ٢٦]، فذكر البراءة من عبادتهم، ومنهم.

قال -رحمه الله-: وهو ثلاث مراتب: الإسلام والإيمان والإحسان، هذه المراتب، مراتب الدين ذكرها الشيخ -رحمه الله- في الأصل الأول مجملةً، وهذا موضع تفصيلها بأدلَّتها:

معنى المراتب يعني الدرجات، كل واحدة من هذه المراتب أو الدرجات أخصُّ من الأخرى؛ أخصها مرتبة الإحسان، ثم بعدها يعني الأوسع منها مرتبةُ الإيمان، ثم مرتبةُ الإسلام

هي أوسعها، ويمثل لها العلماء بثلاث دوائر: الدائرة الصغيرة هي ماذا؟ الإحسان، ثم دائرة أكبر منها وهي؟ الإيمان، ثم دائرة أكبر منهما وهي؟ الإسلامُ.

وبناءً على هذا فكل محسنٍ فهو مؤمن مسلمٌ، وليس كلُّ مسلمٍ أو مؤمنٍ محسنًا.

طيب كل مؤمن فهو مسلم، وليس كل مسلم مؤمنًا لكن لا بد أن يبقى مع هذا المسلم قدرٌ من الإيمان يصحِّح إسلامه وإلا يكون كافرًا لم يكن عنده إيمان أبدًا هذا ليس بمؤمن لا بد أن يبقى معه قدر من الإيمان يصحّح إسلامه.

ولهذا فإن النبي عليه الصلاة والسلام في بعض الأحاديث ينفي الإيمان، لاحظ، لكن مع بقاء الإسلام يقول عليه الصلاة والسلام: «لا يَزْنِي الزّاني حِينَ يزَني وهُو مُؤمنٌ» نفى عنه ماذا؟ الإيمان لكن بقي مع أصل الإسلام، وهذا مفيدٌ في الردِّ على الخوارج الذين يُكفِّرون، يعني يقول: ذهب الإيمان، خلاص يكفر، يقول لا، ذهب الإيمان لكن بقي معه الإسلام.

أيضًا في مثل قول عليه الصلاة والسلام: «واللهِ لا يُؤمنُ قالوا: مَنْ يا رسُولَ اللهِ؟ قَال مَن لا يأمَنُ جارُه بوائقَه»، فنفى عنه الإيمان.

قال: وكل مرتبة لها أركان، الأركان جمع ركن، وهو جانب الشيء الأقوى، قال: فأركان الإسلام خمسة، ثم ذكر هذه، دلَّ عليها حديثُ ابنِ عمرَ رضي الله عنه في الصَّحيحين: «بُنِي الإسلامُ على خمسٍ: شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمدًا رسول الله...»، إلى آخر الحديث المعروف.

لكن الإسلام إذا اجتمع مع الإيمان صار الإسلام يراد به الأعمال الظاهرة، والإيمان يُراد به الأعمال الباطنة، وأما إذا لم يجتمعا فيدل كل واحد منهما على معنى الآخر، فهما من الألفاظ التي يقول العلماء: إذا اجتمعت افترقت وإذا افترقت اجتمعت، قال: فدليل الشهادة، يعني شهادة ألا إله إلا الله قوله تعالى: ﴿شَهِدَ اللهُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَالْمَلَائِكَةُ وَأُولُو الْعِلْمِ قَائِمًا بِالْقِسْطِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ [آل عمران: ١٨]، هذه الشهادة هي أعظم شهادة في الوجود؛ فإنها من أعظم شاهدٍ وهو الله -عزَّ وجلَّ- على أعظمِ مشهودٍ به وهو التوحيد: ﴿شَهِدَ اللهُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ﴾ شهادةً من الله على توحيده.

ثم قال: ﴿والملائكة﴾ يعني أن الملائكة يشهدون أنه لا إله إلا هو سبحانه: ﴿وَأُولُو الْعِلْمِ﴾ كذلك يشهدون على توحيده سبحانه، وأنه لا إله إلا هو، وإنما يشهد أهل العلم بما عندهم من علم الكتاب والسنة أن الله -عزَّ وجلَّ- هو المستحق لأن يُعبد.

استشهاده -جلَّ وعَلا- بالملائكة وبأولي العلم، هذا يدل على فضلهم ومكانتهم وشرفهم؛ فكون الله -عزَّ وجلَّ- يجعل العلماء يشهدون معه في هذه الشهادة على أمرٍ هو أعظم ما يشهد به لا شك أن هذا يدل على فضل العلم.

قد تقدم معنا أن المراد بالعلم هنا: هو علم الشريعة.

قوله: ﴿قَائِمًا بِالْقِسْطِ﴾؛ أي بالعدل: ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ﴾، هذا فيه تأكيد، فأعاد هذه الكلمة العظيمة تأكيدًا، قال: ومعناها: لا معبود بحقٍّ إلا الله، هذا معنى كلمة التوحيد، فإذا قيل لك: ما معنى لا إله إلا الله؟ فتقول: لا معبود بحقٍّ إلا الله، وهذا فيه الرد على أهل البدع الذين يفسرونها بالربوبية، فيقولون: معناها: لا خالقَ إلا الله ولا رازقَ إلا الله، أو لا قادر على الاختراع إلا الله، وغير ذلك من أفراد الربوبية.

فهؤلاء نجيبهم بأن نقول: لو كانت لا إله إلا الله معناها الربوبية لقالها مَن؟ كفار قريش، أليس كفار قريش يقولون: لا خالق إلا الله؟ ﴿وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ خَلَقَهُنَّ الْعَزِيزُ الْعَلِيمُ﴾ [الزخرف: ٩]، ﴿وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ اللهُ فَأَنَّى يُؤْفَكُونَ﴾ [الزخرف: ٨٧] يقرُّون بالربوبية وأن الله هو الخالق الرازق المحيي المميت، ليس الخصومة معهم في توحيد الربوبية، الخصومة في توحيد العبادة، لو كانت لا إله إلا الله تفسر بالربوبية لقالها أبو جهل، وقالها أبو طالب، وقالها غيره من كفار قريش، ولكنهم عرفوا المعنى أنها تنفي آلهتهم: ﴿أَجَعَلَ الْآلِهَةَ إِلَهًا وَاحِدًا إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عُجَابٌ﴾ [ص: ٥]، فهم لا يرضون بهذا، يعرفون المعنى: أن معناها: لا معبود بحق إلا الله؛ ولهذا ما قالوها: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا إِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ يَسْتَكْبِرُونَ * وَيَقُولُونَ أَئِنَّا لَتَارِكُوا آلِهَتِنَا لِشَاعِرٍ مَجْنُونٍ﴾ [الصافات: ٣٥، ٣٦]، فهم يعرفون المعنى، فمن العجب أن يأتي من يدَّعي الإسلام في هذه الأزمنة المتأخرة ولا يعرف معنى لا إله إلا الله، فيكون أبو جهل أعرفَ منه بمعنى لا إله إلا الله، وهذا يدَّعي الإسلام، تقول له: ما معنى

لا إله إلا الله؟ يقول: لا خالقَ إلا الله ولا رازقَ إلا الله ولا محيِي إلا الله، تقول: ليس هذا معناها، معناها: لا معبود بحقٍّ إلا الله جلَّ وعَلا.

فهذه مسألة مهمة ينبغي أن تكونَ حاضرةً؛ لأن الخلافَ فيها مع أهل البدع كبيرٌ جدًّا، فإذا أنكرتَ عليهم صرفَ العبادة لغير الله، قالوا: نحن لم نخالف لا إله إلا الله، على اعتبار أن لا إله إلا معناها الربوبيَّة، هم يقولون ما نقول إنه ربٌّ وأنه يخلق ويرزق، لا، ما نقول هذا، نحن نصرف له العبادة لأجل أن يشفع لنا عند الله، لأجل أن يقرِّبنا إلى الله زلفى، نقول هذا، كما أخبر الله -عزَّ وجلَّ- عن المشركين: ﴿مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللهِ زُلْفَى﴾ [الزمر: ٣]، ﴿وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنْفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَؤُلَاءِ شُفَعَاؤُنَا عِنْدَ اللهِ﴾ [يونس: ١٨]، هذا شرك المشركين الأولين، فمن وقع فيه من المتأخرين حُكم عليه بحكم أولئك.

فالمقصود أن هذه مسألة مهمة: أن يُعرف معنى لا إله إلا الله، وهو: أنه لا معبود بحقٍّ إلا الله، بعضهم يفسرها فيقول: لا معبود موجودٌ إلا الله. هل هذا صحيح؟ نقول: لا ليس بصحيح؛ لأن العبادة أو الآلهة الموجودة التي تُعبَد دون الله -عزَّ وجلَّ- كثيرةً، أم لا؟ يوجد آلهة كثيرة تُعبَد من دون الله، فنقول المعنى الصحيح: لا معبود بحق إلا الله جلَّ وعَلا.

ثم قال -رحمه الله-: ﴿لا إله﴾ نافيًا جميع ما يُعبد من دون الله ﴿إلا الله﴾ مُثبتًا العبادة لله وحده، هذا فيه أن هذه الكلمة كلمة التوحيد لها رُكنان: النفي والإثبات؛ النفي في قولك: ﴿لا إِلَهَ﴾ تنفي جميع ما يُعبد من دون الله، والإثبات في قولك: ﴿إلا الله﴾ مُثبتًا العبادة لله وحده، وهذا يدل على أنه لا بد أن يُعلم معنى لا إله إلا الله، فمن قال لا إله إلا الله ولا يعلم معناها فهو ليس بمسلم؛ ولهذا لا بد أن يعرَّفَ من يريد الدخول في الإسلام بمعنى لا إله إلا الله وأنه لا يُعبد إلا الله وحده -جلَّ وعَلا- لأجل أن يدخل في الإسلام؛ ولهذا من شروط لا إله إلا الله الثمانية:

أولها: العلم؛ يعني العلم بمعنى المنافي الجهل.

قال لا شريك له في عبادته كما أنه لا شريك له في ملكه هذا يمر معنا كثيرًا في هذه الرسالة، الاحتجاج عليهم بما أقروا به على ما أنكروه، فكما أن الله -عزَّ وجلَّ- هو المنفرد بالملك فيكون -جلَّ وعَلا- هو المنفرد بالعبادة قال: وتفسيرها الذي يوضحها قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ

إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ إِنَّنِي بَرَاءٌ مِمَّا تَعْبُدُونَ﴾ [الزخرف: ٢٦]، تفسيرها الذي يوضحها يعني تفسير لا إله إلا الله الشيخ الآن لم يعرفك به معنى لا إله إلا الله لا معبود بحق إلا الله لقائل أن يقول: ما الدليل على هذا التفسير؟ قد ينازع منازع فيقول تفسيرها الذي وضحها من قول الله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ إِنَّنِي بَرَاءٌ مِمَّا تَعْبُدُونَ﴾، هذا معنى النفي لا إله: ﴿إِنَّنِي بَرَاءٌ مِمَّا تَعْبُدُونَ﴾؛ لأنه برئ من كل آلهة يعبدونها.

ثم جاء الإثبات فقال: ﴿إِلَّا الَّذِي فَطَرَنِي﴾، يعني إلا الذي خلقني ﴿إِلَّا الَّذِي فَطَرَنِي فَإِنَّهُ سَيَهْدِينِ﴾ [الزخرف: ٢٧]، ففيه الإثبات الآن، لاحظ في الآية أنه جاء فيها النفي وجاء فيها أيضًا الإثبات، فهذا معنى لا إله إلا الله. قال: ﴿وَجَعَلَهَا كَلِمَةً بَاقِيَةً فِي عَقِبِهِ﴾ [الزخرف: ٢٨]، يعني: جعل إبراهيم عليه السلام هذه الكلمة: ﴿إِنَّنِي بَرَاءٌ مِمَّا تَعْبُدُونَ إِلَّا لَّذِي فَطَرَنِيَ﴾، وهذه بمعنى لا إله إلا الله جعلها باقية في عقبِه وفي ذريته، لا يزال من يدين بها فيهم.

قال: وقوله: ﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ﴾ [آل عمران: ٦٤]، الآية هذا دليل آخر على تفسير كلمة التوحيد، فمعنى قوله: ﴿تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ﴾، الكلمة تطلق على الجملة من الكلام يعني كلمة عدل وإنصاف نستوي نحن وإياكم فيها.

ثم فسر هذه الكلمة بقوله: ﴿وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللهَ﴾، هذا معنى لا إله إلا الله فدلَّ على أن لا إله إلا الله، معناها: لا معبود بحقٍّ إلا الله، قال: ﴿فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾ [التوبة: ٦٤].

ودليل شهادة أن محمدًا رسول الله قوله تعالى: ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ * فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُلْ حَسْبِيَ اللهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَهُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ﴾ [التوبة: ١٢٨، ١٢٩]، قوله تعالى: ﴿مِنْ أَنْفُسِكُمْ﴾ فيها قراءتان.

القراءة الأولى: ﴿مِنْ أَنْفُسِكُمْ﴾، يعني أنه بشر مثلكم.

والقراءة الثانية: ﴿مِنْ أَنْفَسِكُمْ﴾، يعني أكرمكم وأشرفكم.

على القراءة الأولى: يعني أنه بشر مثلكم تتمكنون من سؤاله عن أموركم وما تحتاجون إليه، وهذا لا شك أنه أبلغ من أن يكون مَلكًا.

وفي القراء الثانية: "من أنفَسِكم" يعني من أشرفِكم، هذا لا شك أن النعمة به تكون أعظم، وهذا أدعى لقبول ما عنده.

قال: ﴿عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ﴾، يعني يشقُّ عليه، يلحق بأمته الحرج والمشقة: ﴿حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ﴾ يعني حريصٌ على هدايتكم و إنقاذكم من عذاب الله -عزَّ وجلَّ- قال: ومعنى شهادة أن محمدًا رسول الله: طاعته فيما أمر، وتصديقه فيما أخبر، واجتناب ما نهى عنه وزجر، وألا يُعبد الله إلا بما شرَع، هذا معنى شهادة أن محمدًا رسول الله، ليست هي قولٌ باللسان، لكن لا بد أن يُعرَف معناها و أن يُعمل بمقتضاها.

ذكر أربعَ جملٍ معناها واضح، الأول: الطاعة في أمره، سواء كانت الطاعة في واجب أو الطاعة في مستحب، أن يُصدَّق فيما أخبر من أمور الغيب جميعها، وأن يُجتنب ما نهى الله -عزَّ وجلَّ- عنه، وأن لا يُعبد الله -عزَّ وجلَّ- إلا على وفق شريعة محمد عليه الصلاة والسلام، وهذا فيه الرد على أهل البدع الذين يتعبدون لله -عز وجل- على غير سنة النبي صلى الله عليه وسلم.

***

الحمد لله رب العالمين، وصلى الله وسلم وبارك على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

أما بعد.. كنا قد وقفنا على قول الشيخ -رحمه الله- ودليل الصلاة والزكاة وتفسير التوحيد: قوله تعالى: ﴿وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاءَ﴾ [البينة: ٥] الآية.

دليل الصلاة والزكاة من الآية واضح، وأما دلِيلُ تفسيرِ التوحيد فيُؤخَد من قوله: ﴿وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللهَ مُخْلَصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاءَ﴾، والحنفية -كما تقدَّم معنا- ملةُ إبراهيم، وهي عبادةُ الله -عز وجل- بالإخلاص.

وقولُهُ: ﴿وَذَلِكَ دِينُ القَيِّمَةِ﴾ يعني ذلك الذي ذُكر في الآية إنما هو دينُ المِلَّةِ القيِّمةِ يعني المُستقيمة.

قال: ودليلُ الصيام قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ [البقرة: ١٨٣]، أيضًا الدليل على الصيام هنا واضح، ولكن معنى ﴿كُتِبَ﴾المُراد: الكتابة الشرعية؛ فالكتابة على قسمين: كتابةٌ شرعية وكتابةٌ كونية: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ﴾ يعني: الكتابة الشرعية بمعنى أوجب عليكم شرعًا.

وتأتي الكتابة بمعنى الكتابة الكونية كما في قول الله تعالى: ﴿كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ﴾ [الأنعام: ٥٤].

قال: ودليل الحج قوله تعالى: ﴿وَلِلهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ اللهَ غَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ﴾ [البقرة: ٩٧]، أوجه الدلالة على وجُوب الحج من الآية في قوله: ﴿وَلِلَّهِ على النَّاسِ﴾، فعلى تُفيدُ الوجوب، يعني واجبٌ وفرضٌ على الناس حِجُّ بيتِ الله الحرام من استطاعَ إليه سبيلًا، قال: ﴿وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ اللهَ غَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ﴾ قال ابن عباس رضي الله عنهما وغيره: أي ومن جحد فريضة الحج، فقد كفر والله -جل وعلا- غنيٌ عنه، يعني من يقول الحج ليس بواجب فهذا أنكر أمرًا معلومًا من دين الإسلام بالضرورة فيكون كفرًا، وحينئذٍ فإن الله -عز وجل- غنيٌّ عن هذا وأمثاله.

قال: المرتبة الثانية: الإيمان، المرتبة الثانية من مراتب الدين هي مرتبة الإيمان، والإيمان عند أهل السنة والجماعة: قولٌ باللسان، واعتقادٌ بالجنان، وعملٌ بالجوارح والأركان، يزيد بالطاعة وينقص بالعصيان.

قال: وهو بضعٌ وسبعون شُعبة، البضع: هو العدد من الثلاثة إلى التسعة، وقوله: شُعبة يعني خصلة، يعني أن خصال الإيمان كثيرة تصل إلى بضعٍ وسبعين شُعبة.

قال: «فأعلاها: قول لا إله إلا الله، وأدناها: إماطةُ الأذَى عنِ الطَّريقِ، والحَيَاءُ شُعبةٌ منَ الإيمَانِ»، هذه الجملة من كلام الشيخ -رحمه الله -هي نص حديث عن النبي صلى الله عليه وسلم أخرجه البخاري ومسلم.

وقوله: «فأعْلاهَا قولُ لا إلَه إلا الله»، هذا أعلى شُعب الإيمان، وذلك أن كلمة التوحيد هي أساس الملة، وأدنى شُعب الإيمان إِماطَةُ الأذى عن الطريق، يعني: إِزالَةُ الأذى عن الطريق؛ من حجرٍ أو شوكٍ أو غير ذلك، إذا عرفنا الأعلى والأدنى، فما بينهما شُعب كثيرة من شُعب الإيمان تتفاوت في قُربها من الأعلى، أو في قُربها من الأدنى.

قال: «والحياءُ شُعبةٌ منَ الإيمَانِ»: الحياءُ عملٌ قلبي، يحملُ صاحبه على كل ما يُجمل ويزين، ويمنعه من ارتكاب كل ما يُدنِّس ويشين، هذا هو الحياء.

وإذا تأملت في تعريف أهل السنة والجماعة للإيمان عمَّا ورد في هذا الحديث تجد أن أركان الإيمان موجودة فيه، قال: فأعلاها قول لا إله إلا الله، هذا قول، وأدناه إماطة الأذى عن الطريق، هذا فعل، هذا عمل، والحياء هذا عمل قلبيٌّ.

شُعب الإيمان متفاوتة -كما تقدم- منها ما إذا زالَ، زالَ الإيمان بالكُلِّية، ومنها ما إذا زال فإن الإيمان لا يزول، ولكن يزول كمالُه الواجب، ومنها ما إذا زال يزول كمال الإيمان المندوب، من أمثلة ذلك شُعبة الشهادتين قال: «فأعلاها قولُ لا إله إلا الله» إذا زالت هذه الشُعبة زال الإيمان؛ لأنها أساس المِلّة -كما تقدَّم- حسنًا.

الزكاة هذه شُعبة من شُعب الإيمان، إذا زالت الزكاة، يعني ما يُزكِّي شخص ما الحكم؟ ما يكفر؟ ما يزول الإيمان بالكُلِّية لكن يزول كماله الواجب، طيب إماطة الأذى عن الطريق، ما حكمه؟ مستحبٌّ، لو أن شخصًا مرَّ بالطريق، ولم يزل هذه الحجارة أو هذا الشوك ونحوه فما حكمه؟ ترك خصلة من خصال الإيمان، ما الحكم؟ نقول تَرك الكمال المندوب، وقس على هذا؛ أي من خصال الإيمان ما إذا زال زال الإيمان بالكلية، ومنها ما إذا زال زال كماله الواجب؛ لأنه اقترف محرمًا، لكن لا يصل به إلى نفي الإيمان عنه والكفر بالله، ومنها ما إذا فقد يزول معه كمال الإيمان المندوب.

قال: وأركانه ستة أركان الإيمان، يعني أصول الإيمان، لا بدَّ من اجتماعها؛ فمتى ما أخلَّ أو ترك رُكنا واحدًا منها، فإنه لا يصحُّ إيمانه.

قال: «أَنْ تؤمِنَ باللهِ» هذا أعظم أركان الإيمان، الإيمان بالله معناه: أن يؤمِنَ بوحدانية الله - عز وجل - في رُبُوبيَّته وفي أُلوهيَّته وفي أسمائه وصفاته، وأنه لا يُعبَد إلا الله -جل وعلا- وملائكته، يُقال في هذا تفصيلًا فيما جاء مُفصلًا، وإجمالًا فيما جاء مُجملًا، يُقال هذا في الإيمان بالملائكة والإيمان بالرسل وغير ذلك ما يأتي، يعني الملائكة نؤمن إجمالًا بوجودهم، وأنهم خلْق من خلق الله -عز وجل- خلقهم الله -جل وعلا-لعبادته، ولتصريف الأمور بأمره سبحانه وتعالى، وغير ذلك مما هو معلوم، ولكن في التفصيل نؤمن بما بلغنا فيه من العلم، فبلغنا أن من الملائكة جبريل -عليه السلام- فنؤمن به، وبلغنا أن منهم إسرافيل وميكائيل ومنكر ونكير اللذان يسألان العبد في قبره وغير ذلك من التفاصيل، يعني بلغنا أن جبريل عليه السلام ينزل بالوحي هذا نؤمن به، وأن إسرافيل قد وكِل بالنفخ في الصور وغير ذلك من الأعمال التي علمناها من كتاب الله -عز وجل - ومن سنة رسوله صلى الله عليه وسلم، فهذه يجب علينا أن نؤمن بها على التفصيل.

قال: «وَكُتُبِهِ» المُراد بكتبه: يعني الكُتب المُنزَّلة من الله -عز وجل- على أنبيائه ورسلِه عليهم الصلاة والسلام، «ورسلِه» نؤمن بهم أيضًا إجمالًا وتفصيلًا، فمن علِمنا اسمه وجب علينا أن نؤمن به على الخصوص، وإلا فنؤمن أن الله -عز وجل - أرسل رسلًا وأنبياء إلى أقوام كثيرين لا نعلم تفاصيل أحوالهم، فهذا إيمان إجمالي.

قال: «واليومِ الآخِرِ» المراد باليوم الآخر: كل ما يكون بعد الموت إلى أن يدخل أهل الجنة الجنة وأهلُ النارِ النارَ؛ فإن مَن مات قامت قيامته، فما يحصل في القبر من نعيم أو عذاب هذا داخلٌ في اليوم الآخر، ثم ما يحصل من البعث والنشور والصراط والميزان والحوضِ ودخول الجنة أو النار، كل هذا داخل في الإيمان باليوم الآخر.

فلا بد من الإيمان بذلك كله، لكن أهم ما في اليوم الآخر: الإيمان بالبعث؛ لأن كفار قريش قد أنكروا البعث؛ ولهذا جاء في بعض الروايات في حديث جبريل -عليه السلام- عند مسلم أنه -عليه الصلاة والسلام- لما سُئِل: ما الإيمان؟ قال: «أَنْ تُؤمِنَ بِاللهِ، وَمَلَائِكَتِهِ، وَكِتَابِهِ، وَلِقَائِهِ وَرُسُلِهِ، وَتُؤْمِنَ بِالْبَعْثِ الآخِرِ» لماذا خُصَّ البعث؟ لأن المُخاطب يُنكِر البعث.

قال: «وتؤمنَ بالقدر خيره وشرِّه» الإيمان بالقدر، يتضمن الإيمان بأربع مراتب أذكرها إجمالًا .

المرتبة الأولى: مرتبة العلم؛ يعني أن تؤمنَ أن الله -عز وجل- قد علم بعلمه القديم ما هو كائن.

والثانية: مرتبة الكتابة فتؤمن أن الله -عز وجل- كتب كل شيء في اللوح المحفوظ.

والثالثة: مرتبة المشيئة فتؤمن أن الله -عز وجل- ما شاء كان، وما لم يشأ لم يكن، ولا يقع في هذا الوجود شيء إلا بمشيئته جل وعلا.

والمرتبة الرابعة: هي مرتبة الخلق؛ فما في الوجود شيء إلا وقد خلقه الله عز وجل، لا يخرج شيء عن أن يكون مخلوقًا من الله -سبحانه وتعالى وبحمده- فهو الذي قدره وهو الذي أوجده.

لا يكون مؤمنًا إلا مَن جمع هذه المراتب الأربع من مراتب الإيمان بالقدر، قال: والدليل على هذه الأركان السِّتَّة، قولُ تعالى ﴿لَيْسَ الْبِرَّ أَنْ تُوَلُّوا وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللهِ﴾ [البقرة: ١٧٧]، هذا الركن الأول، ﴿وَالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾ هذا الثاني، ﴿وَالْمَلَائِكَةِ﴾، الثالث، ﴿وَالْكِتَابِ﴾، يعني جنسُ الكتاب والمراد جميع الكتبُ المنزلة هذا الرابع، ﴿وَالنَّبِيِّينَ﴾، هذا الخامس.

بقي معنا الرُّكن السادس وهو القدر ذكر له دليلًا خاصًّا وهو قوله تعالى: ﴿إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ﴾ [القمر: ٤٩].

أما المرتبة الثالثة: فهي مرتبة الإحسان قال: وهو رُّكن واحد «أنْ تَعْبُدَ اللهَ كَأَنَّكَ تَراهُ فإنْ لَمْ تَكن تَراهُ فإنَّه يَراكَ»، وكما تقدم معنا أن الإحسان هو أعلى مراتب الدين، أعلى مراتب الدين هو الإحسان، وعرفنا أن المحسن مؤمن ومسلم ولا عكس.

الإحسان له مرتبتان: وردت فيما ذكره المؤلف رحمه الله.

المرتبة الأولى: «أن تعبدَ الله كأنكَ ترَاه» يعني: أن تؤديَ العبادة التي أمرك الله -عز وجل- بها كأنك ترى الله -جل وعلا- يعني تستحضر أنك تعاين ربك ومعبودك جل وعلا.

ومن المعلوم أن من يعبد الله -عز وجل- على هذه الحال فإنه لا بد أن يحسن العبادة ظاهرًا وباطنًا، فتكون العبادة على أكمل الوجوه، هذه المرتبة الأولى وهي أعلى من المرتبة الثانيةِ، الآتية.

المرتبة الثانية: «فإنْ لم تَكنْ تَراهُ فإنَّه يرَاكَ» يعني: إذا لم تعبد الله -عز وجل-على استحضار أنك تراه، فاعبده على استحضار أنه -جل وعلا- يراك، ولا يخفى عليه شيء من أمرك لا ظاهرًا ولا باطنًا، وهذه المرتبة -كما تقدم- أدنى من المرتبة التي قبلها.

تلحظ في تفسير الإحسان أنه قال في المرتبة الأولى «أن تعبد الله كأنك تراه»؛ لأن العبد لا يرى الله -عز وجل- حقيقة، لا يراه عند أداء العبادة، إنما يُرى -جل وعلا- يوم القيامة، يراه أهل الإيمان.

وأما في المرتبة الثانية قال: «فإن لم تكنْ تَراه فَإنَّه..» ماذا؟ ما قال كأنه يراك، أم لا؟ قال فإنه يراك لأنه -جل وعلا- يراك حقيقة، يُبصرك -جل وعلا-وأنت تعبده سبحانه، لكن في المرتبة الأولى قال: تعبد الله كأنك؛ لأنك ما تراه في أثناء أداء العبادة، قال: والدَّلِيلُ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿إِنَّ اللهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوْا وَالَّذِينَ هُمْ مُحْسِنونَ﴾ [النحل: ١٢٨] هذه الآية فيها معيَّةُ الله عز وجل، والمعيَّة يقول أهل السنةَ: تنقسم إلى قسمين؛ معيَّةٌ عامةٌ ومعيَّةٌ خاصة، المعيَّةُ العامة تقتضي الإحاطةَ والعلمَ من الله -عز وجل -لعباده جميعًا، تعُمُّ جميع العباد: المؤمن والكافر، فهوَ -جل وعلا- مُحيطٌ بهم مُطَّلِعٌ على شُئونهم، عالمٌ بأحوالهم جل وعلا، هذه معيَّة عامة.

وأما المعيَّة الخاصة: فهي تقتضي زيادة على الأولى؛ النُّصرة، والتأييد، والتوفيق، وهذه لا تكون إلا لأهل الإيمان، هنا في هذه الآية: ﴿إِنَّ اللهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوْا﴾، هذه معية ماذا؟ معية خاصة. ﴿وَالَّذِينَ هُمْ مُحْسِنونَ﴾، يعني أنه -جل وعلا-مع الذين هم محسنون، مع أهل الإحسان معية خاصة تقتضي النصر والتأييد والتوفيق من الله عز وجل، ولا شك أن هذا مما يزيد في إيمان العبد، ويجعله يجتهد في أن يكون من أهل الإحسان.

ما وجه الدلالة من الآية على فضل المحسنين؟ يُقال: وجه الدلالة أن الله تعالى مع المحسنين معيةً خاصة -كما تقدم- يعني بالتأييد والنصر والتوفيق، وهذا لا شك أنه يدل على فضل الإحسان، وعلى أن الإحسان مرتبة عالية من مراتب الدين.

قال: وقوله: ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى الْعَزِيزِ الرَّحِيمِ * الَّذِي يَرَاكَ حِينَ تَقُومُ * وَتَقَلُّبَكَ فِي السَّاجِدِينَ * إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ [الشعراء: ٢١٧ - ٢٢٠]، ما الشاهد من الآية؟ ﴿الَّذِي يَرَاكَ حِينَ تَقُومُ﴾ قد عرفنا أن الإحسان: أن تعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك، أيضًا الآية الثانية قوله تعالى ﴿وَمَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ وَمَا تَتْلُو مِنْهُ مِنْ قُرْآنٍ وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ﴾ [يونس: ٦١] الشاهد من قوله ﴿إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا﴾ هذا يتضمن رؤيته - جل وعلا-لعباده.

قال: والدليل من السنة: حديث جبريل المشهور، حديث جبريل عليه السلام، أخرجه الإمام مسلم في الصحيح، وهو حديث عظيم تضمن مراتب الدين الثلاث، وهي: الإسلام والإيمان والإحسان، وذكر أركان كل مرتبة، والشاهد من هذا الحديث: بعض أهل العلم يقول هو أمُّ السنة، كما أن الفاتحة أم القرآن يصفون هذا الحديث بأنه أم السنة؛ لما اشتمل عليه من المعاني العظيمة، فاشتمل على الإسلام وأركانه والإيمان وأركانه، والإحسان وركنه، ثم ذكر ما يتعلق بعلامات الساعة، لا شك أنه حديث عظيم، الشاهد منه لما قال جبريل عليه السلام للنبي عليه الصلاة والسلام أخبرني عن الإسلام فأخبره بأركان الإسلام، ثم قال: أخبرني عن الإيمان، فأخبره بأركان الإيمان، ثم قال أخبرني عن الإحسان فأخبره بالإحسان، هذا هو وجه إيراد المؤلف -رحمه الله- لهذا الحديث هنا؛ حيث ذكر الدليل على مراتب الدين الثلاث.

الأصل الثالث: معرفة نبيِّكم محمد صلى الله عليه وسلم، وهو محمد بن عبد الله بن عبد المطلب بن هاشم وهاشم من قريش، وقريش من العرب، والعرب من ذرية إسماعيل بن إبراهيم الخليل عليه وعلى نبينا أفضل الصلاة والسلام، وله من العمر ٦٣ سنة منها ٤٠ قبل النبوة و٢٣ نبيًّا رسولًا.

نُبئ بإقرأ وأُرسل بالمدثر وبلده مكة بعثه الله بالنذارة عن الشرك ويدعو إلى التوحيد، والدليل قوله تعالى ﴿يَاأَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ * قُمْ فَأَنْذِرْ * وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ * وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ * وَالرُّجْزَ فَاهْجُرْ* وَلَا تَمْنُنْ تَسْتَكْثِرُ * وَلِرَبِّكَ فَاصْبِرْ﴾ [المدثر: ١-٧] وَمَعْنَى ﴿قُمْ فَأَنْذِرْ﴾: يُنْذِرُ عَنِ الشِّرْكِ وَيَدْعُو إِلَى التَّوْحِيدِ، ﴿وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ﴾: عَظِّمْهُ بِالتَّوْحِيدِ، ﴿وَثِيابَكَ فَطَهِّرْ﴾: أَيْ طهر أَعْمَالَكَ مِنَ الشِّرْكِ ﴿وَالرُّجْزَ فَاهْجُرْ﴾ الرجز: الأصنام، وهجرها: تركها وأهلها، والبراءة منها وأهلها، أخذ على هذا عشر سنين يدعو إلى التوحيد، وبعد العشر عُرج به إلى السماء وفُرِضَت عليه الصلوات الخمس، وصلَّى في مكة ثلاث سنين وبعدها أُمر بالهجرة إلى المدينة، والهجرة: الانتقال من بلد الشرك إلى بلد الإسلام، والهجرة فريضة على هذه الأمة من بلد الشرك إلى بلد الإسلام، وهي باقية إلى أن تقوم الساعة.

والدليل قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ ظَالِمِي أَنْفُسِهِمْ قَالُوا فِيمَ كُنْتُمْ قَالُوا كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِي الْأَرْضِ قَالُوا أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ اللهِ وَاسِعَةً فَتُهَاجِرُوا فِيهَا فَأُولَئِكَ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَسَاءَتْ مَصِيرًا * إِلَّا الْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ لَا يَسْتَطِيعُونَ حِيلَةً وَلَا يَهْتَدُونَ سَبِيلًا * فَأُولَئِكَ عَسَى اللهُ أَنْ يَعْفُوَ عَنْهُمْ وَكَانَ اللهُ عَفُوًّا غَفُورًا﴾ [النساء: ٩٧- ٩٩] .

وقوله تعالى: ﴿يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ أَرْضِي وَاسِعَةٌ فَإِيَّايَ فَاعْبُدُونِ﴾ [العنكبوت: ٥٦] قال البغوي -رحمه الله -تعالى: سببُ نزول هذه الآية في المسلمين الذين في مكة لم يهاجروا ناداهم الله باسم الإيمان.

والدليل على الهجرة من السنة قوله صلى الله عليه وسلم: «لا تَنْقَطِعُ الهِجرةُ حتَّى تَنقطِعَ التَّوبةُ ولا تنقَطِعُ التَّوبَةُ حتَّى تَطْلُعَ الشَّمسُ مِنْ مَغْرِبِها»، فلما استقرَّ في المدينة أُمِر ببقية شرائع الإسلام، مثل الزكاة والصوم والحج والأذان والجهاد والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وغير ذلك من شرائع الإسلام.

أخذ على هذا عشر سنين، وتُوفِّي -صلوات الله وسلامه عليه- ودينه باق، وهذا دينه لا خير إلا دلَّ الأمة عليه، ولا شرَّ إلا حذَّرها منه، والخير الذي دلَّها عليه: التوحيد وجميع ما يحبه الله ويرضاه، والشر الذي حذرها منه: الشرك وجميع ما يكرهه الله ويأباه، بعثه الله إلى الناس كافة

وافترض طاعته على جميع الثقلين؛ الجن والإنس، والدليل قوله تعالى: ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا﴾ [الأعراف: ١٥٨].

هذا الأصل الثالث وهو معرفة النبي صلى الله عليه وسلم، وإنما كانت معرفته عليه الصلاة والسلام أصلًا من أصول الدين؛ لأنه عليه الصلاة والسلام هو الواسطةُ بيننا وبين الله تعالى، في بيان ما أمر الله -عز وجل - به وبيان ما نهَى عنه، ولا يُمكننا أن نعرف الأصل الأول وهو معرفة الرب -جل وعلا- ولا الأصل الثاني وهو معرفة دين الإسلام إلا عن طريق النبي صلى الله عليه وسلم؛ فلهذا صارت معرفتنا بهذا الأصل أصلًا عظيمًا مهمًّا.

يدخل في معرفة النبي -عليه الصلاة والسلام- معرفة اسمه ونسبه وعُمُره وبلده وما دعا إليه من التوحيد ووفاته، وغير ذلك من تفاصيل سيرته عليه الصلاة والسلام.

ذكر المؤلف -رحمه الله -شيئًا يسيرًا من سيرة النبي صلى الله عليه وسلم، وما يجب على العبد أن يعرفه عن النبي عليه الصلاة والسلام.

قال: هو محمد، هذا أشهر أسمائه عليه الصلاة والسلام، وقد ورد في القرآن في مواضع كما هو معلوم، ومن أسمائه: أحمد، كما قال -جل وعلا- ﴿وَمُبَشِّرًا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِنْ بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدُ﴾ [الصف: ٦] ومن أسمائه عليه الصلاة والسلام: الماحي الذي يمحو الله -عز وجل - به الكفر، ومن أسمائه: الحاشر، الذي يُحشر الناس على قدميه، يعني على أثره، ومن أسمائه عليه الصلاة والسلام: العاقِب، الذي ليس بعده أحد، وغير ذلك مما ثبت من أسمائه.

ومن المعلوم أن الشيء إذا كان عظيمًا تعدَّدت أسماؤه، فتعدُّد الأسماء للنبي صلى الله عليه وسلم دليل على عظمته عليه الصلاة والسلام، وأما كنيته فهو «أبو القاسم».

قال محمد بن عبد الله، مات والده عبد الله وهو حملٌ في بطن أمه آمنة، ابن عبد المطلب هذا جده الذي كفله بعد وفاة أمه، ابن هاشم وهاشم من قريش القبيلة الكبيرة المعروفة، قال: وقريش من العرب يعني بذلك العرب المستعربة؛ لأن العرب على قسمين؛ عرب عاربة وعرب مستعربة، المستعربة هم العدنانيون والذين منهم النبي صلى الله عليه وسلم، فإن نسبه ينتهي إلى عدنان.

والعرب المستعرِبة أفضل من العرب العاربة، قال: والعرب من ذرية إسماعيل بن إبراهيم الخليل -عليه وعلى نبينا أفضل الصلاة والسلام-، وله من العمر ثلاثٌ وستون سنة، منها أربعون قبل النبوة، فإنه عليه الصلاة والسلام بُعث على رأس أربعين سنة من عمره، وثلاثٌ وعشرون نبيًّا رسولا، فالمجموع ثلاثٌ وستون سنة.

قال: نُبِّئ باقرأ وَأُرْسِلَ بِالْمُدَّثِّرِ. الرسول هو من أُوحي إليه بشرعٍ وَأُمِرَ بِتَبْلِيغِهِ هذا تعريف الرسول: من أوحي إليه بشرعٍ وَأُمِرَ بِتَبْلِيغِهِ.

وأما النبي فمن أوحي إليه بشرعٍ وَلم يُؤْمَر بِتَبْلِيغِهِ. قال نُبِّئَ باقرأَ وأرسل بِالْمَدَّثِّرِ يعني لما نزلت عليه سورة اقرأَ أصبح نبيًّا، وأما وصف الرسالة فبعد أن نزلت عليه سورة المُدَّثِّر ﴿يا أيها المُدَّثِّر قُمْ فأنْذِر﴾، فأمره -جل وعلا- بالنذارة.

قال: وبلده مكة، ولد بها -عليه الصلاة والسلام- ونشأ بها، ثم بعد ذلك هاجر إلى المدينة. قال بَعْثَهُ اللهُ بِالنِّذَارَةِ عَنِ الشِّرْكِ وَيَدْعُو إِلَى التَّوْحِيد، هذا مهم في معرفة بأي شيءٍ بُعِثَ محمد عليه الصلاة والسلام، فهو قد بُعِثَ بالنذارة، والتحذير من الشرك، والدعوة إلى التوحيد، وهذا يوافق كلمة التوحيد عند التأمُّل فهي لا إله إلا الله، فيها أولًا النفي ثم يأتي الإثبات.

فالنذارة عن الشرك هذا فيه النفي، ويدعو إلى التوحيد هذا فيه الإثبات، وهذه دعوته -عليه الصلاة والسلام- ودعوةُ الرسل جميعًا -عليهم الصلاة والسلام- قبله قال والدليلُ قوله تعالى: ﴿يَاأَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ * قُمْ فَأَنْذِرْ * وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ * وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ * وَالرُّجْزَ فَاهْجُرْ* وَلَا تَمْنُنْ تَسْتَكْثِرُ * ولربِّكَ فاصبِر﴾، قال معنى ﴿قُمْ فَأَنْذِرْ﴾: يُنذِر عن الشِّرك ويدعو إلى التوحيد ﴿ورَبَّكَ فكَبِّر﴾ أي: عظِّمه بالتوحيد، فالتوحيد تعظيم لله -عز وجل- لما فيه من إفراده -جل وعلا- بالعبادة، ويقابله الشرك؛ فإنه تنقيص لله -عز وجل- قال ﴿وثِيَابَك فَطهِّر﴾ أي: طهِّر أعمالك عن الشرك، فالتطهير هنا هل هو حسي أو معنوي؟ معنوي؛ لأن السورة مكية ولم تُفرَض الصلاة بعد، ولكن المؤلف -رحمه الله - في رسالته: شروط الصلاة وأركانها وواجباتها، استدلَّ بهذه الآية نفسها على أن طهارة البدن والثوب والبُقعة، شرطٌ لصحة الصلاة، فوجه الاستدلال في الرسالة الأخرى أن يُقال: إن هذه الآية إذا دلَّت على تطهير الثياب المعنوية فقد دلَّت على تطهير

جنس الثياب، فيدخل في ذلك الثياب الحسيَّة، هذا وجه الاستدلال لهذه المسألة فيما يذكره الفقهاء عند ذكر شروط الصلاة.

قالوا: ﴿وَالرُّجْزَ فَاهْجُرْ﴾ الرجز: الأصنام، وهجرها: تركها والبراءة منها وأهلها، فكما يهجر الشرك يهجر أيضًا أهل الشرك، قال الله -عز وجل-: ﴿قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ إِذْ قَالُوا لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَآءُ مِنْكُمْ﴾ [الممتحنة: ٤]، فبدأ بالبراءة من أهل الشرك: ﴿إِنَّا بُرَآءُ مِنْكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللهِ﴾ بدأ بالبراءة من أهل الشرك، ثم البراءة من الشرك.

وقال إبراهيم عليه السلام أيضًا: ﴿وَأَعْتَزِلُكُمْ وَمَا تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللهِ﴾ [مريم: ٤٨]، فبدأ باعتزال العابدِ قبل اعتزال المعبود، قال: أخذ على هذا عشر سنين يدعو إلى التوحيد، يعني عشر سنين في مكة، دعوته للتوحيد، وهذا يدلك على عِظم التوحيد، فاشتغاله -عليه الصلاة والسلام- عشر سنين في مكة كله بالدعوة للتوحيد والتحذير من الشرك، ما فُرضت عليه الصلاة ولا زكاة ولا صيام ولا غيره.

قال: وبعد العشرِ عُرج به إلى السماء، يعني بعد عشر سنين من بعثته -عليه الصلاة والسلام- صُعد بروحه وجسده إلى السماء، فلم يكن العُروج بالجسد فقط، ولا بالروح فقط، كما زعمه بعضهم، بل عُرِج به بروحه وبجسده، كما قال -جل وعلا-: ﴿سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلًا مِنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَى الَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ﴾ [الإسراء: ١].

قال: وفُرضت عليه الصلوات الخمس، يعني في تلك الليلة أصلها خمسون صلاة، لكن لم يزل عليه الصلاة والسلام يتردد بين ربه -جل وعلا- وموسى عليه السلام يقول: «سل ربك التخفيف» حتى انتهى الأمر إلى وجوب خمس صلوات، وهي بفضل الله -عز وجل- في الأجر والثواب كأجر خمسين صلاة.

قال: وصلَّى في مكة ثلاث سنين، وبعدها أُمرَ بالهجرة إلى المدينة؛ وذلك لأنه -عليه الصلاة والسلام- قد أُوذَي هو وأصحابه فلم يتمكنوا من الجهر بالتوحيد والدعوة إلى التوحيد فأُوذوا أذًى شديدًا، فهيَّأ الله -عز وجل- له أنصارًا في المدينة فهاجر إليهم.

قال: والهجرة: الانتقال من بلد الشرك إلى بلد الإسلام، هذا تعريف الهجرة: أن ينتقل من بلد الشرك إلى بلد الإسلام، ويكون المقصد من هذا الانتقال هو الدين، وإلا فقد ينتقل الإنسان من بلد شرك إلى بلد إسلام لأجل دنيا، لأجل وظيفة أو لأجل أي أمر دنيوي هذا لا يُقال إنه مُهاجر وليس فعله قُربى، وإنما إذا هاجر من بلاد الشرك وبلاد الكفر إلى بلاد الإسلام رغبة في الدين، حتى يتمكن من إظهار دينه والقيام بشعائر الإسلام هذا هو الذي يكون مُهاجرًا وفعله عبادة.

قال: والهجرة فريضة على هذه الأمة من بلد الشرك إلى بلد الإسلام، هذا حكم الهجرة أنها فرض عين، في حق القادر على الهجرة، أما من كان عاجزًا عن الهجرة فهو معذور.

قال: وهي باقية، يعني الهجرة باقية إلى أن تقوم الساعة فليست منقطعة، فمتى ما كان الإنسان في بلاد كفرٍ فإنه يُهاجر إلى بلاد الإسلام، أما قول النبي عليه الصلاة والسلام: «لا هجرةَ بعدَ الفتحِ» الحديث في الصحيحين «لا هجرة بعد الفتح» يعني: لا هجرة بعد فتح مكة؛ لأن مكة صارت بلاد إسلام، بعد فتحها فلا يطلب من أحد في مكة أن يهاجر، أما قبل الفتح فمطلوب من المسلم الذي في مكة أن يهاجر إلى المدينة، أما بعد فتحها فلا هجرة حينئذٍ.

أما حكم الهجرة فهو باقٍ، فمتى ما وُجد بلاد كفر وبلاد إسلام، فإن الهجرة باقية قال: والدليل قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ ظَالِمِي أَنْفُسِهِمْ قَالُوا فِيمَ كُنْتُمْ قَالُوا كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِي الْأَرْضِ﴾ [النساء: ٩٧] الآيات، هذا الدليل من القرآن الكريم على فرضية الهجرة ﴿إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ ظَالِمِي أَنْفُسِهِمْ﴾ ظلموا أنفسهم بأي شيء؟ بالإقامة في بلاد الشرك، أقاموا بين أظهر المشركين في مكة، المعلوم أن حكم غيرها من بلاد الشرك حكم مكة آنذاك: ﴿قَالُوا فِيمَ كُنْتُمْ﴾ السؤال ممن؟ من الملائكة لهؤلاء الذين أقاموا في بلاد الكفر، قَالُوا فِيمَ كُنْتُمْ يعني: في أي فريق كنتم: هل أنتم مع المسلمين أم مع المشركين؟ هذا السؤال معلوم جوابه للملائكة، ولكنه استفهام يراد به التوبيخ لهم والتقريع لهم: ﴿قَالُوا كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِي الْأَرْضِ﴾، هذا الآن عُذرهم في إقامتهم في بلاد الشرك، قالوا نحن مُستضعَفين في الأرض، هل هذا عُذر؟ ليس بعُذر؛ ولهذا لم تعذرهم الملائكة: ﴿قَالُوا أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ اللهِ وَاسِعَةً فَتُهَاجِرُوا

فِيهَا﴾ وإذا كانت أرضُ الله واسعة، وهم قادرون على الهجرة فيجب عليهم أن يُهاجروا من بلادِ الكفر إلى بلاد الإسلامِ، قال: ﴿فَأُولَئِكَ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَسَاءَتْ مَصِيرًا﴾، هذا فيه أن ترك الهجرة، يعني إذا وجبت عليه الهجرة من بلاد كفرٍ إلى بلاد إسلامٍ، وتمكن من ذلك فلم يُهاجر ففعله كبيةٌ من كبائر الذنوب؛ لأنه توعد عليه بوعيد شديد قال: ﴿فَأُولَئِكَ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَسَاءَتْ مَصِيرًا﴾.

شيخ الإسلام ابن تيمية -رحمه الله- جعل لنا ضابطًا في حد الكبيرة، أنه إذا ورد فيها وعيد خاص بنار أو عدم دخول الجنة أو لعنٍ أو نحو ذلك من الوعيد الشديد فيكون الفعل حينئذٍ كبيرةً من كبائر الذنوب.

قال: ﴿فَأُولَئِكَ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَسَاءَتْ مَصِيرًا * إِلَّا الْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ لَا يَسْتَطِيعُونَ حِيلَةً وَلَا يَهْتَدُونَ سَبِيلًا﴾ [النساء: ٩٧، ٩٨] هؤلاء معذورون في ترك الهجرة؛ لأن ما لهم حيلة في أن يهاجروا؛ إما أنهم لا يتمكنون من الخروج من البلد، لوجود التسلُّط من أهل الكفر عليهم فيمنعونهم من الخروج، أو أنهم إذا خرجوا يضيعون في الطريق، ولا يتمكنون من الوصول إلى بلاد الإسلام، هؤلاء معذورون عند الله -عز وجل- قالَ: ﴿وَلَا يَهْتَدُونَ سَبِيلًا﴾، ﴿فَأُولَئِكَ عَسَى اللهُ أَنْ يَعْفُوَ عَنْهُمْ﴾ [النشاء: ٩٩] وعسى من الله -عز وجل- واجبة، إذًا دلَّت هذه الآية على وجوب الهجرة من بلاد الكفر إلى بلاد الإسلام، ولا يُعذَر في عدم الهجرة إلا من كان عاجزًا عن الهجرة، أما من كان مُستضعفًا لكنه قادرٌ على الهجرة، فهذا ليس معذورًا.

لكن لا بد من قيدٍ في وجوب الهجرة من بلاد الكفر إلى بلاد الإسلام، يعني تجب الهجرة من بلاد الكفرِ إلى بلاد الإسلام، عرفنا قبل قليل مع القدرة، يضاف أيضًا أن يكون عاجزًا عن إظهار دينه، أما من كان قادرًا على إظهار دينه في بلاد الكفر فلا تجب عليه الهجرة، ولكنها تُستحبُّ؛ لأن بقاءَه في بلاد الكفر- وإن استطاع أن يُظهر دينه فيه تعريض لنفسه للفتنة، واضح هذا؟ إذن لا بد من قيد، متى تجب الهجرة من بلاد الكفر إلى بلاد الإسلام؟

نقول: أولًا إذا كان عنده قدرة على الهجرة، والأمر الثاني إذا كان عاجزًا عن إظهار دينه، أما من قدر على إظهار دينه لا تجب عليه يبقى، لكن يُستحب له أن يُهاجر.

طيب إذا كان في بقائه اشتغالٌ بالدعوة إلى الله -عز وجل- فهذا لا شك أن بقاءه أولى؛ لما فيه من المصلحة العظيمة، فإن الدعوة إلى دين الإسلام إظهار للدين وزيادة. واضح؟

حسنًا، بقي معنا ما معنى إظهار الدين، الذي إذا وجد لم تجب الهجرة، وإذا فقد وجبت الهجرة؟.

معنى إظهار الدين: أي إظهار الاعتقاد الصحيح لأهل كل بلد بحسب كفرهم، فإن كان أهل البلد أهلُ شرك، ويعبدون غيرَ الله -عز وجل-، فإظهارُ الدين أن يُظهرَ لهم التوحيد، وأنَّ الله -عز وجل- هو المعبود وحده دون ما سواه، وأنَّ هذه الآلهة التي تعبدُ من دون الله لا تَستحقُّ أن تُعبد وأنها باطلة، إذا استطاعَ أن يُظهرَ هذا يبقى، ما استطاعَ، خافَ أن يُؤذَى، نقول يجب عليك أن تُهاجر، إذا كان أهل البلد كفرهم في إنكار رسالة النبي صلى الله عليه وسلم، يقولون ليس برسول، فإظهار الدين عندهم أن نُظهر أنه رسول من عند الله، وأنه رسولُ حقٍّ، فإذا استطعنا أن نظهر هذا نبقى، وإلا وجبت الهجرة، وقص على هذا جميع أنواع الكفر، فيُظهر لكل أهل بلدٍ بحسب ما عندهم مما يخالف ما يعتقدون، وليس إظهار الدين إظهار شعائر العبادات؛ من صلاةٍ أو أذان أو صيام أو نحو ذلك، هذا بعضُ إظهار الدين داخلٌ في إظهار الدين، لكن ليس هو إظهار الدين فقط، بمعنى أن من تمكن من الأذان في بلاد الكفر وتمكن من إظهار شعيرة الصلاة ونحوها من الشعائر، لكن ما يتمكن من إظهار التوحيد، نقول أنت لست بمظهرٍ لدينك على التمام الكمال، فتجب عليك الهجرة؛ لأن إظهار الدين كما أقره أئمة الدعوة وغيرهم كثير من أهل العلم، أنه إظهار الاعتقاد الصحيح في كل بلدٍ بحسبِه.

قال: وقوله تعالى ﴿يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ أَرْضِي وَاسِعَةٌ فَإِيَّايَ فَاعْبُدُونِ﴾ [العنكبوت: ٥٦] هذا دليل آخر على وجوبِ الهجرة؛ فناداهم -جل وعلا- باسم الإيمان، وأخبر أن أرضه واسعة، فمن لم يمكنه أن يُظهر دينه في بلاد الكفر؛ فإنه يُهاجر إلى أرض الله الواسعة.

قال البغوي -رحمه الله تعالى- الإمام المفسر: سبب نزول هذه الآية في المسلمين الذين بمكة لم يُهاجروا ناداهم الله باسم الإيمان، فهذا يفيدك أن من لم يُهاجر مع قدرته أنه لا يكفر، قال: ناداهم باسم الإيمان، فدلَّ على أنه مؤمن لكنه مرتكبٌ -كما تقدم- لكبيرة من كبائر الذنوب.

قال: والدليل على الهجرة من السنة قوله صلى الله عليه وسلم: «لا تنقطع الهجرة حتى تنقطع التوبة، ولا تنقطع التوبة حتى تطلع الشمس من مغربها» هذا الحديث أخرجه أبو داود في سننه من حديث معاوية رضي الله تعالى عنه، وهو يدل على أن حكم الهجرة لم يُنسخ فهو باقٍ، «لا تنقطع الهجرة حتى تنقطع التوبة»، من المعلوم أن التوبة باقية إلى قيام الساعة.

قال: فلما استقر بالمدينة أُمِر ببقية شرائع الإسلام، تقدَّم أنه عليه الصلاة والسلام بقي عشر سنين يدعو إلى التوحيد فقط، ثم أُمِر بالصلاة ثلاث سنين، ثم بعد ذلك هاجر إلى المدينة، في المدينة أُمِر ببقية شرائع الإسلام، يعني أُمِر بالزكاة، يعني تفاصيل الزكاة بأنصبَتها، والأموال التي تجب فيها الزكاة ونحو ذلك، وأُمِر بالصيام، وأُمر بصلاة العيد، ونحو ذلك من الشعائر المعروفة.

قال: مثل الزكاة والصوم والحج والجهاد والأذان، كل هذا معروف، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وهذا قد يُشكل؛ فإنه في مكة كان يأمر بأعظم معروف وهو التوحيد، وينهى عن أعظم منكر وهو الشرك؛ إذًا ما مراد الشيخ -رحمه الله-بقوله: والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر؟ يريد -والله أعلم- يعني عامة المعروف وعامة المنكرات، أما التوحيد فقد أمر به في مكة والشرك قد نهى عنه في مكة، لكن بقية المأمورات وبقية المنهيات هذا كان ظاهرًا في المدينة.

قال: أخذ على هذا عشر سنين يُوحَى إليه -عليه الصلاة والسلام- ثم توفي صلوات الله وسلامه عليه، قال: ودينه باقٍ، هذا فيه إشارة إلى أن الدين ليس مرتبطًا بحياة النبي عليه الصلاة والسلام؛ لأن رسالته هي خاتمة الرسالات، ورسالته إلى الناس كافة، فهو عليه الصلاة والسلام هو خاتمُ الأنبياء والمرسلين، وشريعته هي خاتمة الرسائل، أيضًا لأن شريعته قد تكفَّل الله -عز

وجل- بحفظها قال الله تعالى ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾ [الحجر: ٩]، ولا تزال طائفة من أمته عليه الصلاة والسلام على الحق ظاهرين حتى تقوم الساعة، قال: وهذا دينه، لا خيرَ إلا ودلَّ الأمة عليه ولا شرَّ إلا وحذَّرها منه، إلى آخر كلامه -رحمه الله- واضحٌ بيِّن.

قال: بَعْثَهُ اللهِ إِلَى النَّاسِ كَافَّةً، وافترض اللهُ طَاعَتَهُ عَلَى جَمِيعِ الثَّقَلَيْنِ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ، والدَّلِيلُ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا﴾ [الأعراف: ١٥٨]، هذا في عموم رسالة محمد عليه الصلاة والسلام لجميع الناس.

قال: وأكملَ الله به الدين، والدليل قوله تعالى: ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ﴾ [المائدة: ٣]، لم يتوفَّ الله -عز وجل- نبيه صلى الله عليه وسلم إلا بعد أن بلَّغَ البلاغَ المُبين، وأكملَ الله -عز وجل- به الدين، فليس لأحدٍ أن يدَّعيَ أن الدِّين لم يكمُل، كما هو حال أهل البدع فإنهم يزعمون -بحالهم لا بمقالهم- أن الدين لم يَكمُل، فيبتدعون في دين الله -عز وجل- عباداتِ ما دلَّ عليها دليل لا من كتاب الله ولا من سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم، فهذه الآية من أقوى ما يُردُّ به على أهل البدع، إذا جاءنا شخص وقال: نتعبد الله -عز وجل- بهذه العبادة نقول: ما الدليل عليها؟ إذا لم يأتِ بدليل فنقول: أنت الآن تتهم محمدًا عليه الصلاة والسلام أنه لم يكمل الدين، كأن هناك دينًا عندك الآن، عندك عبادات لم يأمرنا بها محمد عليه الصلاة والسلام: ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا﴾، والنبي -عليه الصلاة والسلام- ما ترك شيئًا إلا ودلَّ الأمة عليه، كما في حديث عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما في صحيح مسلم، يقول عليه الصلاة والسلام: «مَا بَعَثَ اللهُ مِن نَبيٍّ إلا كانَ حَقًّا عَلَيْهِ أنْ يدلَّ أمتَه علَى خيرِ مَا عَلِمَه لَهم ويُنذَرهم شرَّ ما يَعلمُه لَهم».

هنا أثر عن الإمام مالك -رحمه الله- يتعلق بهذه المسألة، وهو ما ذكره ابن الماجشون -من تلاميذ الإمام مالك- يقول: سمعت مالكًا يقول: (من ابتدع في الإسلام بدعة يراها حسنة، فقد زعم أن محمدًا صلى الله عليه وسلم خان الرسالة) ما الدِّليل على هذا؟ كلمة عظيمة، الذي يبتدع الآن كأنه يقول محمد عليه الصلاة والسلام خان الرسالة، كيف هذا؟ قال لأن الله يقول:

﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ﴾، فما لم يكن يوم إذٍ دينًا - يعني على حياة النبي عليه الصلاة والسلام- فلا يكون اليوم دينًا، فلا شك أن هذه الآية آية عظيمة نرد بها على أهل البدع.

قال: والدليل على موته صلى الله عليه وسلم قوله تعالى: ﴿إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُمْ مَيِّتُونَ﴾ [الزمر: ٣٠] الأدلة على موته معلومة من الدين بالضرورة يعلمها الخاص والعام، ولا حاجة إلى الاستدلال على ذلك، ولكن يوجد من أهل البدع من يزعم أن النبي صلى الله عليه وسلم لم يمت، وهذا من خرافاتهم وباطلهم ولا يُستغرب منهم مثل هذا، يقولون: إن الموت نقص، انظر الحجة، الموت نقص، وحينئذ كيف يموت محمد عليه الصلاة والسلام؟! هذا من أباطلهم ومن خرافاتهم، فالله -عز وجل- أخبر في كتابه قال: ﴿إِنَّكَ مَيِّتٌ﴾، يعني ستموت، فمات -عليه الصلاة والسلام- كما عرف ذلك الخاص والعام من أهل الإسلام.

بهذا انتهى ما يتعلق بالأصل الثالث من كلام الشيخ -رحمه الله- تعالى.

بقي عندنا خاتمة ذكرها الشيخ نمرُّ عليها سريعًا.

وأكمل الله به الدين، والدليل قوله تعالى: ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا﴾.

والدليل على موته صلى الله عليه وسلم قوله تعالى: ﴿إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُمْ مَيِّتُونَ * ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عِنْدَ رَبِّكُمْ تَخْتَصِمُونَ﴾ [الزمر: ٣٠، ٣١]، والناس إذا ماتوا يُبعثون، والدليل قوله تعالى: ﴿مِنْهَا خَلَقْنَاكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَى﴾ [طه: ٥٥] وقوله تعالى: ﴿وَاللهُ أَنْبَتَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ نَبَاتًا *ثُمَّ يُعِيدُكُمْ فِيهَا وَيُخْرِجُكُمْ إِخْرَاجًا﴾ [نوح: ١٧، ١٨]، وبعدَ البعث محاسبون ومجزيُّون بأعمالهم، والدليل قوله تعالى: ﴿وَلِلهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ لِيَجْزِيَ الَّذِينَ أَسَاءُوا بِمَا عَمِلُوا وَيَجْزِيَ الَّذِينَ أَحْسَنُوا بِالْحُسْنَى﴾ [النجم: ٣١]، ومن كذّب بالبعث كفر، والدليل قوله تعالى: ﴿زَعَمَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنْ لَنْ يُبْعَثُوا قُلْ بَلَى وَرَبِّي لَتُبْعَثُنَّ ثُمَّ لَتُنَبَّؤُنَّ بِمَا عَمِلْتُمْ وَذَلِكَ عَلَى اللهِ يَسِيرٌ﴾ [التغابن: ٧] .

وأرسل الله جميعَ الرسل، مبشرين ومنذرين، والدليل قوله تعالى: ﴿رُسُلًا مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ﴾ [النساء: ١٦٥]، وأولهم نوح -عليه السلام-

وآخرهم محمد صلى الله عليه وسلم، وهو خاتم النبيين، والدليل قوله تعالى: ﴿إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ كَمَا أَوْحَيْنَا إِلَى نُوحٍ وَالنَّبِيِّينَ مِنْ بَعْدِهِ﴾ [النساء: ١٦٣]، وكل أمة بعثَ الله إليهم رسولًا من نوح إلى محمد صلى الله عليه وسلم يأمرهم بعبادة الله وحده وينهاهم عن عبادة الطاغوت، والدليل قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ﴾، وَافْتَرَض اللهُ عَلَى جَمِيعِ الْعِبَادِ الكفر بالطاغوت، والإيمان بالله.

قال ابن القيم -رحمه الله -تعالى: معنى الطاغوت ما تجاوز به العبد حده، من معبودٍ أو متبوعٍ أو مطاع، والطواغيت كثيرون ورؤوسهم خمسة، إبليس لعنه الله، ومَن عُبد وهو راض، ومن دعا الناس إلى عبادة نفسه، ومن ادعى شيئًا من علم الغيب، ومن حكم بغير ما أنزل الله، والدليل قوله تعالى: ﴿لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ فَمَنْ يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِنْ بِاللهِ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَى لَا انْفِصَامَ لَهَا وَاللهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ [البقرة: ٢٥٦]، وهذا هو معنى لا إله إلا الله.

وفي الحديث: «رأسُ الأمْرِ الإسلامُ وعَمودُه الصَّلاةُ وذِروةُ سنَامِه الجِهادُ فِي سَبيلِ اللهِ» والله أعلم، وصلى الله على نبينا محمد وآله وصحبه وسلم.

ختم الشيخ -رحمه الله تعالى- هذه الرسالة، بذكرِ بعض الأصول المهمة المتعلقة بالاعتقاد؛ فأول ما ذكره في هذه الخاتمة ما يتعلق بالبعث بعد الموت، وذلك أن كفار قريش قد أنكروا البعث -كما هو معلوم- وذكر المؤلف دليلَ ذلك من كتاب الله عز وجل.

والإيمان بالبعث هو داخل في الإيمان باليوم الآخر -كما تقدم- فهو ركنٌ، أعني أن الإيمان باليوم الآخر ركنٌ من أركان الإيمان الستَّة المتقدمة، ولكن أفرد الشيخ -رحمه الله - الكلام على الإيمان بالبعث لأهمية الأمر ولوجود المخالف فيه، ولأجل أن يذكر دليله، ويُبين حكمه.

الدليل على أن الناس إذا ماتوا يبعثون قوله تعالى: ﴿مِنْهَا خَلَقْنَاكُمْ﴾؛ يعني من الأرض ﴿وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ﴾، يعني إذا متم تدفنون ﴿وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَى﴾، هذا في الدلالة على بعثهم بعد موتهم، وقولُه تعالَى: ﴿وَاللهُ أَنْبَتَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ نَبَاتًا﴾؛ يعني هذا في مبدأ خلقه -جل

وعلا- للعباد، خلقَهم من تراب، ﴿ثُمَّ يُعِيدُكُمْ فِيهَا﴾ يعني إذا مُتَّم، ﴿وَيُخْرِجُكُمْ إِخْرَاجًا﴾؛ يعني للبعث يوم القيامة، فهذا في الدلالة على البعث.

مما جاء في الدلالة على البعث من السنة حديث ابن عباس رضي الله عنهما أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «قال الله: كذَّبني ابن آدم ولم يكن له ذلك وشتَمني ولم يكن له ذلك؛ فأما تكذيبه إياي فزعم أني لا أقدر أن أعيدَه كما كان، وأما شتمه إياي فقوله لي ولد، فسبحاني أن أتخذ صاحبة أو ولدًا».

قالوا بعد البعث مُحاسبون ومَجزيون بأعمالهم، وهذا أمرٌ معلوم أن الله -عز وجل- إنما يبعث العباد ليجازيهم على أعمالهم، فإن الله -جل وعلا- لم يخلق الخلق عبثًا ولا سدى، قال: والدليل على ذلك قوله تعالى: ﴿لِيَجْزِيَ الَّذِينَ أَسَاءُوا بِمَا عَمِلُوا﴾؛ يعني يجزيهم بالعقوبة عدلًا منه جل وعلا، ﴿وَيَجْزِيَ الَّذِينَ أَحْسَنُوا بِالْحُسْنَى﴾ [النجم: ٣١]، فضلًا وكرمًا منه -سبحانه وتعالى- قالوا: ومن كذب بالبعث كفر هذا بيان حكم المُكذب للبعث؛ لأنه أنكر ما في كتاب الله -عز وجل- وما في سنة رسوله صلى الله عليه وسلم.

قال: وأرسل الله جميع الرسل مبشرين ومنذرين، والدليل قوله تعالى: ﴿رُسُلًا مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ﴾ أولهم نوح عليه السلام وآخرهم محمد صلى الله عليه وسلم، وهذا كله واضح، ثم ذكر الدليل على أن أولهم نوح عليه السلام، وهو قوله تعالى: ﴿إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ كَمَا أَوْحَيْنَا إِلَى نُوحٍ وَالنَّبِيِّينَ مِنْ بَعْدِهِ﴾، فنوح عليه السلام هو أول رسول، أما آدم عليه السلام فهو أول نبيٌّ، وعرفتم الفرق بين النبي والرسول.

قال: وكل أمة بعث الله إليها رسولًا من نوح إلى محمد، يعني أن الله -عز وجل- ما ترك أمةً إلا وبعث فيها نذيرًا، قال الله تعالى: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولًا﴾ [الإسراء: ١٥] ﴿وَإِنْ مِنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ﴾ [فاطر: ١٤].

قال: يأمرهم بعبادة الله وحده وينهاهم عن عبادة الطاغوت، هذا فيه أن دعوة الرسل واحدة عليهم الصلاة والسلام، وهو الدعوة إلى توحيد الله -عز وجل- ذكر الدليل على هذا، وهو قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ﴾ [النحل: ٣٩]،

﴿اعْبُدُوا اللهِ﴾، هذا فيه الإثبات ﴿وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ﴾، هذا فيه النفي، فاجتمع في هذه الجملة شرطَا أو رُكنا لا إله إلا الله.

قال: وافترض الله على جميع العباد الكفرَ بالطاغوت والإيمانَ بالله، هذا أيضًا فيه النفي والإثبات، الكفر بالطاغوت هذا النفي، والإيمان بالله هذا الإثبات.

قال ابن القيم –رحمه الله الإمام الكبير المحقق العلامة تلميذُ شيخ الإسلام ابن تيمية بل من أجلِّ تلاميذه عليهما جميعًا رحمةُ الله تعالى، المتوفَّى سنة سبعمائة وإحدى وخمسين للهجرة، قال –رحمه الله –: الطاغوت: ما تجاوز به العبدُ حدَّه، فكل شيءٍ تجاوز به العبدُ حدَّه في الشرع، فإنه يكون بهذا الشيء طاغوتًا.

قال: من معبودٍ أو متبوعٍ أو مُطاعٍ، ما تجاوز به العبد حدَّه من معبودٍ من بيانيَّةٌ، يعني أن من يُعبَد مع الله –عز وجل – بأي نوعٍ من أنواع العبادة، وقد رضي أن يُعبَد من دون الله –عز وجل– فإنه يكون طاغوتًا، كل من عُبِد من دون الله بأي نوع من أنواع العبادة، وقد رضي وأقر أن يُعبد من دون الله فهذا يُسمى طاغوتًا لماذا؟ لأنه تجاوز هذا العبد حدّه، حدّه أن يكون عابدًا لا معبودًا، فحينئذ يُطلق عليه وصف الطاغوت.

قال: أو متبوع، يدخل في المتبوع الكهان والسحرة، الذين يتبعهم الناس على ما يقولون، فهؤلاء يسمون طواغيت، كما يدخل في ذلك علماء السوء الذين يدعون الناس إلى الباطل ويزينون المعاصي فيتبعهم الناس على ذلك، فهؤلاء طواغيت.

قال: أو مطاع، يعني من يُطاع في تحليل الحرام وتحريم الحلال، بأن يُعتقد أن هذا المخلوق الذي يُطاع؛ سواء كان ملكًا أو كان أميرًا أو نحو ذلك، يُعتقد فيه أن له الحق في التحليل والتحريم، كما أن الله –عز وجل – يُطاع في التحليل والتحريم، وكما أن النبي صلى الله عليه وسلم يُطاع في التحليل والتحريم، هذا يُسمَى طاغوتًا، يعني بحيث أن هذا المخلوق المُطاع إذا قال: هذا الشيء حلال يعتقدونه حلالًا، إذا قال: هذا الشيء حرام يعتقدونه حرامًا، وهذا يختلف عمن يُطاع من هؤلاء مع اعتقاد أن الفعل حرام.

انتبه للفرق بين المسألتين، يعني قد يكون شخصٌ له سلطان وله قوة، فيأمر بعض أتباعه أن يشربوا الخمر، مثلًا فيشربون الخمر لكن مع اعتقاد ماذا؟ أنّها حرام، هذا ليس كفرًا، هذا لا يدخل في الكلام الذي نريده هنا، هذه معصية مثل غيرها من المعاصي والكبائر، لكن المقصود أنّهم إذا قال لهم هذا حلال يعتقدونه حلالًا، كما أن الله -عز وجل -إذا قال هذا حلال يعتقدونه حلالًا، وإذا قال حرام يعتقدونه حرامًا واضح الفرق؟ هذا داخل في شرك الطاعة.

قال: والطواغيت كثيرون ورؤوسهم خمسة إبليس لعنه الله، هذا رأس الطواغيت وسمّي إبليس بذلك من الإبلاس وهو اليأس؛ لأنه يائسٌ من رحمة الله -عز وجل- أو من البُعد؛ لأنه مبعود ومطرود من رحمة الله.

قال: ومن عُبدَ وهو راضٍ، هذا الثاني -تقدَّم معنا قبل قليل- أن من عُبدَ مع الله -ز وجل- وهو راضٍ ومُقِرٌّ لهذه العبادة، فإنه يطلق عليه وصف الطاغوت.

قال: ومن دعا الناس إلى عبادة نفسه سواءٌ أعُبدَ أم لم يُعبَد، من قال للناس أعبُدوني يكون طاغوتًا بمجرد ذلك، سواءٌ عبدوه أو حتى لو لم يعبدوه؛ لأنه تجاوز حده، قال: ومن ادَّعى شيئًا من علم الغيب، كالكُهان والمنجمين ونحوهم -كما تقدَّم الكلام عليه في أول هذا الدرس- هؤلاء طواغيت، ومَن حكَم بغير ما أنزل الله، كمن يحكم بعادات الجاهلية والأعراف القبَلية التي تسمى (السلوم)، يحكمون بها، هؤلاء طواغيت، أو يحكم بالقوانين الوضعية التي تُخالِف الشرع، فهذا حكمٌ بغير ما أنزل الله -عز وجل-، إلا أن الحكمَ بغير ما أنزل الله فيه تفصيل، وفيه كلام يطول، تراجعونه في شروح كتاب التوحيد، فبعض أنواعه يصل إلى الكفر وبعضه لا يصل إلى الكفر، يعني من أمثلة ما لا يصل إلى الكفر: لو أن قاضيًا حكمَ بغير شرع الله لأجل الهوَى أو لأجل الرِّشوة، يعني خصومة بينَ اثنين عند القاضي على مائة ألف فجاء المدَّعي أو المدَّعَى عليه فرشَى القاضي فحكم القاضي بغير حكم الله -عز وجل- هل نكفِّره؟ ما يُكفَّر، يقالُ هذا عاصٍ، مرتكب لكبيرةٍ، لكن لا يكفر، إذًا المقصود أن فيه تفاصيل، يعني يطول الكلام فيها، تراجعونها في شروح كتاب التوحيد.

قال: والدليل قوله تعالى: ﴿لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ فَمَنْ يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ﴾ [البقرة: ٢٥٦] هذا فيه النفي ﴿وَيُؤْمِنْ بِاللهِ﴾، هذا فيه الإثبات، إذًا هذا هو معنى لا إله إلا الله، ﴿فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَى﴾، فقد استمسك بدينه؛ ولهذا قال: ﴿لَا انْفِصَامَ لَهَا﴾، عُروة وُثقى لا يمكن أن تنقطع؛ لأنه استمسك بأمر عظيم، وهو أساس الدين، وهو توحيد الله عز وجل.

قال: وهذا معنى لا إله إلا الله، وفي الحديث: «رأسُ الأمرِ الإسْلامُ وعَمُودُه الصَّلاةُ وذِرْوَةُ سنامِه الجِهادُ في سبيلِ اللهِ»، هذا الحديث أخرجه الترمذي من رواية معاذ رضي الله تعالى عنه.

«رأسُ الأمرِ الإسْلامُ» يعني أساس الأمر الذي جاء به النبي عليه الصلاة والسلام هو الإسلام، وحقيقة الإسلام وأعظم ما في الإسلام هو توحيد الله عز وجل.

قال: «وعَمُودُه الصَّلاةُ» هذا يفيد عظم شأن الصلاة وأنها من الدين كالعمود للخيمة، من المعلوم أن عمود الخيمة إذا سقط تسقط الخيمة على من فيها، فهذا استدلَّ به من يقول من أهل العلم: إن تارك الصلاة يكفر، والمقصود: تارك الصلاة تهاونًا وكسلًا، وإلا من تركها جحودًا وإنكارًا فهذا بإجماع أهل العلم أنه يكفر، لكن من تركها تهاونًا وكسلًا عند الفقهاء فيه خلاف، ولكن الذي أجمع عليه الصحابة رضي الله تعالى عنهم على أنه يكفر، كما حكى ذلك عبد الله بن شقيق التابعي -رحمه الله -تعالى قال: لم يكن أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم يرون شيئًا من الأعمال تركه كفر إلا الصلاة. ونقل أيضًا غيره إجماع الصحابة، وأيضًا حكاه ابن القيم -رحمه الله- في كتاب الصلاة؛ فالإجماع محكي في هذا، وهذا يدلُّك على عظم شأن الصلاة، وأنه يجب على العبد أن يعتني بها غاية العناية.

قال: «وذِرْوَةُ سنامِه الجِهادُ في سبيلِ اللهِ» ذِروة سنامه يعني أعلاه وأرفعه، فدلَّ هذا على أن الجهادَ في سبيل الله -عز وجل- هو أعلى وأرفع الخصال في الدين.

ثم قال الشيخ رحمه الله: والله أعلم وصلى الله وسلم على محمدٍ وآله وصحبه وسلم.

فأسأل الله -عز وجل- أن يجزي شيخ الإسلام محمد بن عبد الوهاب خير الجزاء على ما جاهد في نصرة التوحيد، وعلى ما نصح وعلم، ويسَّر تعلُّم التوحيد لعموم المسلمين، فأسأل الله

-عز وجل- أن يرفع درجته، وأن يجمعنا به وبآبائنا وأمهاتنا ومشايخنا، ومن له حق علينا، يجمعنا بهم في دار كرامته ومستقر رحمته، وأسأل الله -عز وجل- أن يجزي آل سعود على نُصرتهم لهذه الدعوة، ابتداءً من الإمام محمد بن سعود رحمه الله، ثم مَن جاء بعده من أبنائه وأحفاده، إلى هذه الدولة المباركة، أسأل الله -عز وجل- أن يبارك في الحي منهم، وأن يغفر للميت، وأن يجزيهم خير الجزاء على ما نصروا من توحيد الله -عزّوجل- ونصرة دينه، هذا والله أعلم، وصلى الله وسلم وبارك على نبينا محمد وآله وصحبه أجمعين.